حوليات آداب عين شمس المجلد 50 (عدد أكتوبر – ديسمبر 2022)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)

تحليلان تداوليان لخطاب حجاجي واحد

د. أحمد عبد الحميد عمر*

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة عين شمس، مصر
ahmed.omar@art.asu.edu.eg

تاريخ الاستلام: 2022/4/24
تاريخ قبول البحث: 2022/5/12
تاريخ النشر: 2022/12/29

المستخلص:

يهدف هذا البحث إلى التمييز بين المقاربتين الجدلية التداولية والتداولية الإدراكية للممارسات الحجاجية تمييزا عمليا، من خلال المقارنة بين تطبيق كليهما على نص واحد اختير عشوائيا، هو أحد مقالات الروائي علاء الأسواني المنشورة بصحيفة الشروق عام 2009.

تُعنى المقاربة الجدلية التداولية ابتداءً بإعادة بناء الخطاب الحجاجي، بالاستعانة بقواعد سيرل للأفعال الكلامية ومبادئ جرايس، وصولا إلى تحديد العناصر ذات الصلة بحل الخلاف في الرأي بين الأطراف المشاركة في النقاش النقدي. ويعين تحديد هذه العناصر "المنظّر" على تقييم الخطاب النقدي في ضوء موافقته أو مخالفته لمعايير المعقولية.

في المقابل، تُعنى المقاربة التداولية الإدراكية بتحديد الطرائق التي يعمل بها النظام الإدراكي للمحاججين "العاديين" حال استقبالهم للخطاب، والكيفية التي يعمل بها هذا النظام استدلاليا وتقييميا. وتهتم هذه المقاربة على وجه خاص ببيان الطريقة التي يقيد بها منشئ الخطاب الحجاجي السياق بهدف الوصول إلى التفسير الذي يتوافق مع أهدافه الإقناعية، وكذلك الطريقة التي يثبط من خلالها "اليقظة الإبستيمية" لمتلقي الخطاب لكي لا ينتبه إلى ما في الخطاب من ممارسات مغالِطة و/أو تلاعبية.

وانطلاقا من أن المنخرطين في الخطاب الحجاجي قد يوظفون بعض "الاختصارات الإدراكية" لتحقيق ذلك الهدف، يقترح البحث اختصارا جديدا يعرف باختصار "الضحية–الجاني"، الذي يوجّه المتلقي لمعالجة المعلومات في ضوء عدد محدود من الافتراضات الماثلة في محيطه الإدراكي غاضا الطرف عما سواها.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب – جامعة عين شمس 2022.

يهدف هذا البحث إلى بيان الفروق الجوهرية بين مقاربتين تداوليتين للخطاب الحجاجي بيانا عمليا: إحداهما مقاربة جدلية تداولية، والأخرى تداولية إدراكية. سوف أقدم تحليلين منفصلين لمقال رأي سياسي واحد، عنوانه "نورا والمنتخب الوطني"؛ بغية تحقيق هذا الهدف. كان الروائي علاء الأسواني قد نشر هذا المقال بجريدة "الشروق" القاهرية بتاريخ 17 نوفمبر 2009[1]. يتبنّى التحليل الأول المقاربة الجدلية التداولية، ويتبنى الآخر مقاربة تداولية إدراكية.[2]

1. "نورا والمنتخب الوطني": صراعات المعنى في عالم المسؤولية السياسية

ربما يجدر قبل الشروع في التحليل تفصيلُ الطريقة التي أنظر بها إلى موضوع المقال، وهي الطريقة النابعة من فهمي للمأزق الحجاجي الذي يمر به كاتبه. تنتهي كل مقالات الأسواني على اختلاف الصحف التي نشرت بها على مدى عشرين عاما تقريبا، مثل "العربي"، والشروق"، والمصري اليوم"، بعبارة "الديموقراطية هي الحل". لا تمثل العبارة مجرد سمت أسلوبي يريد كاتب المقال من خلاله أن يضفي خصوصية على مقالاته، بل تعد، من خلال النظر في مضامين مقالاته، بمنزلة العقد الناظم الذي يربط المقالات مجتمعة من خلال مستوى أعلى من التفسير؛ مستوى يتعلق بالتغيير السياسي الشامل.

إن هذا التوظيف المتكرّر المنتظم لعبارة "الديموقراطية هي الحل" يستدعي من خلال ثنائية الحضور والغياب العبارة النقيضة "الاستبداد هو المشكلة". وهو ما يعني ضمنا أن دلالة كل مقال على حدة يمكن توجيهها حجاجيا على النحو الذي يجعلها داعمة لمشروعية التغيير السياسي في المستوى السياسي الأعلى، إما بالحجاج المبرر لانعدام كفاءة نظام محمد حسني مبارك الذي كان قائما آنذاك، وعدم قدرته على تلبية احتياجات المواطنين، أو بالحجاج الداعم لبدائل سياسية مستقبلية، أو بالاثنين معا.

وواحدة من الوسائل التي يستعين بها كل من يقف موقف الأسواني إضفاءُ دلالة سياسية على أحداث يومية سلبية، من خلال تحميل النظام القائم المسؤولية عنها. كان مارافال Maravall (2007) قد تتبع الإستراتيجيات التي تتبعها الحكومات القائمة لتخفيف مسؤوليتها السياسية عن أوضاع معيشية غير مرضية، مثل إنكار بعض المعلومات ذات الصلة، والتقليل من موثوقية من ينقلونها، وتصوير تلك الأوضاع بوصفها حالات استثنائية، يتحمّل المسؤولية عنها أفراد محددون لا النظام في مجمله، أو بوصفها جوانب سلبية لقرارات اتخذتها أنظمة سابقة لا علاقة للنظام القائم بها، أو لقرارات اضطر النظام الحالي لاتخاذها درءا لمفسدة أكبر أو تحقيقا لمصلحة أعلى. يحاول المعارضون السياسيون في المقابل تفنيد الإستراتيجيات السابقة، صراحة أو ضمنا، ببيان أن هذه الأوضاع السيئة نتيجةٌ مباشرة لسياسات عمدية تتحمل مسئوليتها الأنظمة القائمة، من خلال سَوْق أكبر عدد ممكن من الأمثلة الدالة على ذلك.

يركّز الأسواني في هذا المقال، كما يتضح من العنوان، على حادثة وقعت لفتاة مصرية فقيرة تدعى "نورا هاشم محمد"، أصيبت بإنفلونزا الخنازير، لكنها توفيت بعد جولة على المستشفيات الحكومية ما بين التشخيص الخاطئ، ونقص الإمكانيات، وإهمال الموظفين. يجابه كاتب المقال تحديا أوليا يتمثل في ابتكار تصميم حجاجي لمقاله يمكّنه من تحميل المسؤولية للنظام في المستوى الأعلى عن حادثة فردية، يَدَّعي النظام عادة أنها حدث استثنائي، يتحمل مسؤوليته صغار الموظفين.

2. تحليل جدلي تداولي للمقال

2. 1. المقاربة الجدلية التداولية: رؤية مختصرة

ينظر الجدليون التداوليون للنصوص الحجاجية بوصفها محاولات لحل الخلاف في الرأي بين طرفين على الأقل: مناصر لوجهة النظر ومناوئ لها، إما بتقديم وجهة النظر المضادة، أو بطرح الشكوك، على نحو صريح أو ضمني، في وجهة النظر التي يتبناها خصمه. يسعى الجدليون التداوليون إلى تقييم الحجاج المطروح من حيث موافقته لمعايير المعقولية أو مخالفته إياها (وهذا مغزى وصف مقارتهم بالجدلية)، مستعينين بجملة من الإجراءات التداولية، التي تعينهم ابتداء على إعادة بناء الخطاب الحجاجي؛ أي تحديد العناصر الحجاجية ذات الصلة، التي تتمثل فيما يلي:

1. طرفي النقاش: المناصر والمناوئ، وتحديد موقف كلٍّ من وجهة النظر/وجهات النظر المطروحة.
2. صياغة وجهة النظر نفسها صياغة تتسم بالوضوح إذا كان قد جرى طرحها ضمنيا.
3. المنطلقات المضمونية التي تشكّل مساحة الاتفاق بين الطرفين.
4. المنطلقات الإجرائية، وتتمثل في قواعد النقاش المتفق عليها صراحة أو ضمنا (أيّ النقلات الحجاجية مسموح بها؟ وأيّها محظور؟).
5. الحجج المقدمة دعما لوجهات النظر المطروحة، الأساسية منها والفرعية.
6. البنى الحجاجية الموظّفة في الخطاب الحجاجي؛ أي الكيفية التي تترابط بها الحجج دعما لوجهة النظر، وهو ما يؤثر بدوره في الطريقة التي ينبغي على المناوئ أن يفند من خلالها الحجاج المطروح: هل يقدم المناصر أكثر من حجة يزعم أن كلا منها يكفي وحده لدعم وجهة النظر (الحجاج المتعدد)، أم يزعم أنها، مجتمعة، تشكّل دفاعا كافيا عن وجهة النظر المطروحة(الحجاج المتعاضد)، أم يطرح حجة واحدة فحسب، يدلل على مقبوليتها بحجة فرعية وقد يدلل على مقبولية الأخيرة بحجة فرعية أخرى، وهكذا (الحجاج السُلَّمي).
7. المخططات الحجاجية، وتعني الكيفية التي تنتقل بها المقبولية من الحجة إلى وجهة النظر: هل تعد مقبولية الحجة علامة أو عرضا لمقبولية وجهة النظر (الحجاج العرضي)، أم تعد سببا لتلك المقبولية (الحجاج السببي)، أم تنتقل المقبولية من خلال المقارنة (الحجاج القياسي). وتندرج تحت كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة أنواع أخرى فرعية.
8. نتيجة النقاش كما أسفرت عنه التبادلات الحجاجية بين الطرفين: هل سلّم المناوئ بمقبولية وجهة النظر في ضوء الحجاج المطروح، أم تراجع المناصر عن طرح وجهة نظره في ضوء الشكوك التي طرحها المناوئ، أم وصل النقاش إلى مرحلة من التسكين نتيجة للاختلاف بشأن المنطلقات المضمونية التي يفترض أنها تشكّل مساحة الاتفاق بين الطرفين.

تشكّل العناصر السابقة مجتمعة ما يسميه فان إمرن van Eemeren وخروتندورست Grootendorst (2004، ص ص118–122) "الرؤية التحليلية العامة"، وتتعلق جميعها بتشكّل المعنى في ضوء المقاصد الاتصالية للمنخرطين في النقاش الحجاجي كما يُظهرها السياق، وهي من ثم مواضيع للدرس التداولي بامتياز. يستعين الجدليون التداوليون في عملية إعادة البناء تلك بأدوات تداولية تعينهم على تحديد العناصر ذات الصلة في الخطاب بعملية حل الخلاف في الرأي، أهمها ما يلي:

1. المعلومات المتاحة حول المستويات المختلفة للسياق، وهي أربعة:

أ) المستوى اللغوي (الأصغر)، ويتكون من الوقائع اللغوية السابقة واللاحقة للتلفظ موضع الدرس.

ب) المستوى الموقفي (المتوسط)، ويتكون من المعلومات المتاحة حول منشئي الخطاب ومستقبليه، والظروف الزمانية والمكانية التي جرت فيها عمليات الإنشاء والاستقبال.

ت) المستوى الأكبر (المؤسسي)، ويتضمّن المواضعات الاتصالية المنظّمة لنمط النشاط الاتصالي communicative activity type، الذي يصنف النص ضمنه. ورد المفهوم لدى ليفنسون Levinson في مقال عنونه بـــ"أنماط النشاط واللغة"، ويعرف ليفنسون نمط النشاط الاتصالي بوصفه "فئة تصنيفية فضفاضة، تضم أحداثا محددة الهدف، ومشكّلة اجتماعيا، ومحددة المعالم، وذات قيود تتعلق بالمشاركين فيها والأجواء المحيطة بها وخلافه، وتتعلق فوق ذلك كله بكل أنواع الإسهامات المسموح بها" (ليفنسون، 1992، 69). يولي الجدليون التداوليون اهتماما كبيرا بهذا المستوى من السياق، من خلال النظر في الأعراف، الصريحة أو الضمنية، التي تحدّد المسموح به وغير المسموح به من ممارسات لغوية (وحجاجية بالطبع) في هذا النمط الاتصالي أو ذاك.

ث) المستوى البين–خطابي (التناصي)، ويتشكّل من مجمل علاقات التلفظ موضع الدرس بالأحداث الكلامية الأخرى ذات الصلة، إما لأنها من إنشاء الشخص نفسه، أو لأنها تدور حول الموضوع نفسه (يُنظر: فان إمرن، 2011).

2. يطمح الجدليون التداوليون إلى تحقيق التكامل بين المقاربتين الوصفية والمعيارية، محاولين إحداث الدمج بين القواعد التفاعلية التي صاغها جرايس Grice في مبدأ التعاون، وتنظير سيرل Searle للأفعال الكلامية وشروط ملاءمتها felicity conditions. وقد تمكن فان إمرن وخروتندورست من إعادة تعريف مبدأ التعاون (متضمنًا مبادئ الوضوح، والأمانة، والكفاءة، والصلة) الذي قدَّمه جرايس بوصفه مبدأ الاتصال الأوسع، الذي يشمل المبادئ العامة، التي يُفترض أن مستخدمي اللغة يلتزمون بها، ويتوقعون من الآخرين الشيء نفسه. وضع الاثنان– فان إمرن وخرروتندورست– خمس قواعد أكثر تحديدا للاستخدام اللغوي، تعمل بوصفها نظائر فعل–كلامية لقواعد جرايس:

1) لا ينبغي لمنشئ الخطاب أن ينجز أي فعل كلامي غير مفهوم.

2) لا ينبغي لمنشئ الخطاب أن ينجز أي فعل كلامي غير صادق (أو لا يستطيع أن يتقبل تحمل مسؤوليته).

3) لا ينبغي لمنشئ الخطاب أن ينجز أي فعل كلامي حشوي.

4) لا ينبغي لمنشئ الخطاب أن ينجز أي فعل كلامي غير ذي معنى.

5) لا ينبغي لمنشئ الخطاب أن ينجز أي فعل كلامي مرتبط على نحو غير مناسب بأفعال كلامية سابقة (للمتكلم أو الكاتب نفسه، أو لمخاطَبه)، أو بالموقف الاتصالي.

3. نتيجة لربط قواعد جرايس بشروط سيرل من خلال صياغة فان إمرن وخروتندورست لمبدأ الاتصال، صارت قواعد الاستخدام اللغوي في صياغتها تلك– مقارنة بقواعد جرايس– أكثر خصوصية ودقة؛ لأن القواعد الجديدة ليست مقصورة على الأفعال الإخبارية، بل تشمل كل أنماط الأفعال الكلامية الأخرى. أصبحت قواعد الاستخدام اللغوي كذلك أكثر عمومية وشمولا من قواعد جرايس. صار واضحا كذلك أن شروط الملاءمة التي تنطبق على الأنواع المختلفة من الأفعال

الكلامية هي في الحقيقة تحديدات لمبادئ أكثر عمومية للاستخدام اللغوي (يُنظر: فان إمرن وخروتندورست، 2004، ص ص75–80).

2. 2. تصميم المقال موضوع التحليل: إشكالات تداولية[3]

يعدّ النص المدروس لافتًا من الوجهة التداولية، كما يَبين من الطريقة التي تتعاقب بها الأفعال الكلامية الواردة فيه. لنأخذ مثالا بهذا المقتطف من المقال:

"لا يوجد ما يميز نورا هاشم محمد لأنها مثل ملايين المصريات: سمراء، ومتوسطة الجمال، وفقيرة. وقد تزوّجت من عامل بسيط، اسمه هاني زكريا مصطفى، وأنجبت منه ولدين، وخاضت معه كفاحا يوميا ضاريا من أجل لقمة العيش وتربية الولدين. وذات يوم أحست نورا فجأة بإعياء شديد.

كانت مباراة منتخبنا الوطني مع منتخب الجزائر معركة مصيرية، ظهر خلالها معدن المصريين الأصيل، فتناسوا خلافاتهم، ووقفوا جميعا صفا واحدا خلف منتخبهم الوطنى. ولما كان الإعلام الجزائرى قد تورّط فى السخرية من منتخبنا القومى بطريقة بذيئة، فقد قام الإعلاميون المصريون بالرد على ذلك بوابل من الإهانات الموجعة للجزائريين".

ينجز الأسواني في المقتطف السابق جملة من الأفعال الكلامية الإخبارية، التي يتوزع محتواها القضوي على موضوعين: وفاة المواطنة نورا هاشم محمد، والأجواء المصاحبة لمباراة كرة القدم بين منتخبي مصر والجزائر. صحيح أن الأسواني يَفتتح مقاله بقوله:

"أردت أن أكتب هذا الأسبوع عن سيدة مصرية اسمها نورا هاشم محمد، لكن النصر العظيم الذى حققه منتخبنا الوطنى على منتخب الجزائر فى كرة القدم لا يمكن تجاهله. من هنا قررت أن أكتب عن الموضوعين معا". وهو ما قد يبرر التنقل بين الموضوعين، غير أن الطريقة التي صيغَ بها المقال تثير انتباه القارئ وحيرته في الآن نفسه؛ إذ يمضي المقال قدما على هذا النحو: فقرة مشكلة من تتابع من أفعال كلامية إخبارية تتعلق بموضوع، تليها أخرى مشكلة من تتابع آخر يتعلّق بموضوع آخر، وهكذا دواليك.

يتوقف دارس الحجاج من منظور جدلي تداولي عند هذه المراوحة المستمرة إلى نهاية المقال بوصفها تخالف ما استقر من مواضعات اتصالية تتعلق بالمقال السياسي بوصفه نمط نشاط اتصالي (راجع المبحث 2. 1) له ما يميزه من سواه. عند هذا المنعطف يمكن التفصيل قليلا بخصوص توصيف المقال السياسي بوصفه نمط نشاط اتصالي.

ينظر الجدليون التداوليون إلى عمليات الاتصال بوصفها مندرجة ضمن مجالات اتصالية كبرى: الطبي، والسياسي، والقانوني، والصحافي، والتجاري، إلخ. يحوي كلٌّ من مجالات الاتصال تلك أنماط نشاط اتصالي، يسعى كل منها لتحقيق الهدف المؤسسي الأعلى لمجال الاتصال بطريقته المخصوصة (يُنظر: فان إمرن، 2010، ص ص239–263). في مجال الاتصال الصحفي على سبيل المثال، يتمثّل الهدف المؤسسي الأعلى في معاونة المواطنين على زيادة معرفتهم بما يحدث في الشأن العام أولا بأول، ويتحقق هذا الهدف في أنماط الخبر الصحفي، والحوار، والتحقيق، ومقالات الرأي، غير أنه يتحقق بطريقة مختلفة في كلٍّ، وباتباع مواضعات لغوية تتباين في درجة صرامتها.

ففي حين يتسم الخبر الصحفي مثلا باستخدام لغة موضوعية غير انفعالية إلى حد كبير لنقل تمثلات "محايدة" تتعلق بالشأن العام، يحق كتَّاب المقالات استخدام لغة انفعالية وعاطفية، وربما ذاتية، لنقل تمثلات تتعلق بطيف أوسع من المواضيع.

بيد أن مقال الرأي السياسي تحديدا– والنص موضوع التحليل من هذا النمط– لا يُصنَّف ضمن مجال الاتصال الصحفي وحدَه، بل ضمن مجال الاتصال السياسي كذلك؛ لأنه يُسهم– بطريقة مخصوصة مرة أخرى– في تحقيق الهدف المؤسسيّ الأعلى لمجال الاتصال السياسي، المتمثّل في حفظ الثقافة الديموقراطية أو دعمها، من خلال رفع وعي المواطنين بما يحدث في الشأن السياسي العام، وهو الأمر الذي تكون له آثار طفيفة لكنها تراكمية، تسهم في اتخاذ المواطنين لقرارات لها آثار سياسية، مثل المشاركة في الانتخابات أو مقاطعتها، ودعم مرشح أو حزب دون سواه. ومن ثم يصح وصف مقال الرأي السياسي بالنمط الاتصالي "الهجين"؛ لأنه يحقق الهدف المؤسسي لمجالين اتصاليين مختلفين.

ويضمن اندراج مقال الرأي السياسي ضمن مجال الاتصال السياسي أن تكون السمة الحجاجية له سمة أصيلة فيه؛ فلا يتخيل عاقلٌ أن مقال رأي سيشجع المواطنين مثلا على اتخاذ قرارات سياسية باستعمال أدوات التحريض والتهييج مثلا، بل من خلال طرح الحجج التي تتغيَّا تحقيق الإقناع والتأثير. يعني ذلك أن لمحلل الحجاج أن يفترض حجاجية المقال السياسي، وإن بدا ظاهره غير حجاجي للوهلة الأولى، وأن ينسب لمقتطفات نصية ظاهرها غير حجاجي أدوارا حجاجية.

التوصيف السابق يتيح لكاتب مقال الرأي أن يعالج أكثر من موضوع في مقال واحد؛ لأنه بهذه الطريقة ينقل تمثلات حول قضايا الشأن العام، من باب الحرص على ألا يفوته منها ما يعتقد أهميته، ويريد أن يعلن موقفا منها في الآن ذاته. غير أن المتوقّع في تلك الحالة أن يقسّم مقال الرأي إلى أكثر من فقرة بعدد المواضيع المطروحة، فيعالج الكاتب واحدا منها وينتهي منه، منتقلا إلى الآخر[4]. لكنَّ أسلوب المراوحة الذي اتبعه الأسواني يبدو مخالفا لهذه المواضعات الضمنية.

ربما يقود التفكير الافتراضي في ما قد يثير انتباه القارئ وحيرته في هذا التصميم إلى ظنّ، يتعلق بشخص كاتب المقال؛ فهو روائي شهير، وربما تكون تلك طريقته في أن يشكل صورة للإيثوس الموحِي تطابق الإيثوس القَبْلي[5]؛ أي أن يوحي من خلال هذا التصميم بتصور عن نفسه يطابق التصورات المشكلة اجتماعيا، والحالّة في عقول القراء وقلوبهم عنه بوصفه أديبا متمرسا في فنون السرد، بمعزل عن تجربة القراءة ذاتها.

غير أن المواضعات الاتصالية لمقال الرأي السياسي بوصفه نمط نشاط اتصالي تحول دون القبول بتلك الفكرة؛ فلأن يلفت التنظيم الخطابي للرسالة الأدبية الانتباه لذاته أمر مقبول من الوجهة الجمالية في مجال الاتصال الأدبي، بل إنه جوهر الشعرية ذاتها، لكن تظل الصياغة الجمالية لمقال الرأي السياسي حشوية ما لم توضع في خدمة تداوليته؛ أي حين تكون محل رهان على تحقيق نتائج تأثيرية perlocutionary بالمعنى التداولي في القارئ المتلقي.

ويتعارض هذا الأسلوب المراوِح– إن جاز التعبير– ومبدأ الاتصال (راجع مبحث 2. 1). يخرق الأسواني القاعدة الخامسة باستخدامه لهذا الأسلوب؛ فكلّ سلسلة من الأفعال الكلامية غير مرتبطة بما يسبقها من سلسلة لتباين الموضوعين. غير أن هذا الخرق، الظاهري، لا يعني أن متلقي الخطاب سيقف حياله مكتوف الأيدي، مفترضا أن الكاتب يسلك سلوكا

غير تعاوني؛ لأن متلقي الخطاب يفترض دوما أن التلفظات الواردة فيه بما تشمله من تمثلات وصياغات ذات صلة مثلى، ما لم يثبت خلاف ذلك يقينًا.

يعني ذلك أن قراء الأسواني سوف يحاولون إصلاح ذلك الانتهاك "الظاهري" لمبدأ الاتصال من خلال اكتشاف قيمة اتصالية وتفاعلية ما لتوظيف أسلوب المراوحة ذاك. سيفترض القراء من دون كبير عناء أن الأسواني لا يخرق أيًّا من أعراف الاتصال اللغوي، ولن يكون أمامهم إلا افتراض أن الأسواني كتب فعلا في "الموضوعين معا"، لكن بوصفهما موضوعين متّصلين لا منفصلين. يحفز الأسلوب المراوح الذي كتب به الأسواني مقاله قراءَه ليقبلوا ذاك الاقتراح، ويحاولوا الربط قدر استطاعتهم بين الموضوعين من خلال البحث عن رابط مشترك.

ثمة إشكال تداولي آخر ينبغي على المحلل تجاوزه، وهو خرق الأسواني لقاعدة الكيف الجرايسية في مواضع عدة، منها وصفه لفوز المنتخب المصري بـــ"النصر العظيم"، وللمباراة بأنها "معركة مصيرية"، وقوله في نهاية المقال: "على أن مأساة نورا هاشم محمد لا يجوز أن تعكر صفو فرحتنا بالنصر على الجزائر. لقد استجاب الله لدعائنا وجعلنا نحرز هدفين نظيفين، وهكذا أذقنا الجزائريين من كأس الهزيمة وسوف نسحقهم بإذن الله فى مباراتنا المقبلة". تبدو العبارات التي يستخدمها الأسواني عند حديثه عن المباراة وما أحاط بها من تفاصيل مضخَّمة الدلالة؛ نظرًا لاستعارته أوصافًا من حقول دلالية حربية وعسكرية.

صحيحٌ أن النوعية من اللغة[6] التي يستخدمها المعلقون الكرويون والمحللون الرياضيون يغلب عليها هذا الطابع، لكن توظيف هذا المعجم بهذا التردد العالي (وما سبق أمثلة فحسب) يبدو غريبا بعض الشيء؛ غريبا على كاتب رأي لم يعرف عنه اهتمامه بالشأن الكروي في مقالاته إلا لماما، أو تبنيه لرؤية هذا الشأن الترفيهي بوصفه نشاطا ينبغي أن يؤخذ بجدية، فتتحول فعالياته إلى معارك لا بد أن "يسحق" فيها طرف الطرف الآخر!

لا يستخدم الأسواني مثلا ما يمكن تسميته بعلامات التنصيص الاحترازية، أو ما شابهها من وسائل لغوية، تدل على عدم موافقته على المحتوى القضوي الوارد في العبارات المنقولة، أو تشكّكه في الإيحاءات الناتجة عنه، أو ربما غضبه بسببها. لم يستخدم الأسواني عبارات من قبيل "على حد زعمه" أو "ما يعرف بـــ" كما جرت العادة في الأنماط الخبرية حين تنقل محتوى لا يتوافق والخط السياسي للصحيفة أو المحطة التليفزيونية؛ بما قد يعني أنه– الأسواني– يعطي لقارئه الحق في افتراض أنه هو أيضا يتبنى الالتزامات الواردة في الأقوال المنقولة على لسان من حولوا المباراة إلى معركة مصيرية، وهو ما يجعله عرضة لظن القراء بأنه ينتهك القاعدة الثانية من مبدأ الاتصال بإنجازه لأفعال كلامية لا يستطيع تحمل المسؤولية عن صدق محتواها القضوي.

سيحاول القراء تبرير اختراق الأسواني الظاهري للقاعدة الثانية بالطرق المعروضة آنفا، باقتراح أنه في تلك الأجزاء التي يعالج فيها وقائع المباراة إنما يوظّف أسلوب تهكم ضمني لإبراز المفارقة في مدى "الجدية" التي يتعامل بها النظام السياسي الأسبق مع شأن "غير جدي" على الإطلاق. لنتأمل المقتطفات الآتية:

"حرص سيادة الرئيس مبارك على حضور تدريب المنتخب الوطنى وقضى وقتا مع اللاعبين ليشد أزرهم قبل المباراة. والحق أن رعاية الرئيس مبارك للرياضيين معروفة، ولعلنا نذكر عندما مات ألف وأربعمائة مصرى غرقا فى

حادثة العبارة الشهيرة.. فإن حزن الرئيس مبارك آنذاك على الضحايا لم يمنعه من حضور تدريب المنتخب الذى كان يستعد لمعركة مصيرية أخرى فى نهائى كأس أفريقيا...

كل لاعب فى المنتخب سوف يحصل على مكافأة مالية قدرها 6 ملايين جنيه مصرى من الدولة واتحاد الكرة...

لا يقتصر حب الرياضة على الرئيس مبارك لكنه يمتد أيضا إلى ولديه جمال وعلاء، وقد حرص الاثنان على الذهاب إلى الإستاد لتشجيع المنتخب وذهب معهما معظم الوزراء وكبار المسئولين بمن فيهم وزير الصحة الذى جلس بجوار السيد جمال مبارك مباشرة، وقد رأينا فرحة كل هؤلاء الغامرة عندما أحرز عمرو زكى الهدف الأول فى مرمى الجزائر...

بل إن الدكتور حاتم الجبلى وزير الصحة، نسى وقار منصبه والكاميرات المسلطة عليه، وقفز من مكانه واحتضن جمال مبارك ليهنئه بالنصر العظيم..."

يستثمر الأسواني بالتوازي ملكاته السردية هادفا إلى تعزيز حدة المفارقة، من خلال شحن لغة الأجزاء التي يعالج فيها وفاة "نورا" بأوصاف وعبارات تولد التعاطف في نفوس القراء في مقابل ما قد يثور في نفوسهم من نفور سببه المبالغة في ردود أفعال النظام قبل وفي أثناء المباراة؛ فالفقيدة "متوسطة الجمال وفقيرة، وقد تزوجت من عامل بسيط.. وخاضت معه كفاحا يوميا ضاريا من أجل لقمة العيش وتربية الولدين"، وهي كذلك "قد أخفت الأمر عن زوجها هانى حتى لا تزيد من متاعبه"، والاستلزام الحواري[7] الذي يمكن للقارئ استنباطه هو أنها سيدة خلوقة وبائسة، وأنها لم تكن تستحق من ثم الموتَ ضحية للإهمال مثلما حدث![8]

ولن يكون عسيرا على القرّاء عند هذا المنعطف اكتشاف الصلة المشتركة الرابطة لأحد الموضوعين بالآخر؛ فالمقال يرصد المفارقة السياسية بين اهتمام مبالغ فيه للنظام السياسي بشأن "ترفيهي" مثل كرة القدم من ناحية، وتدني الاهتمام بشأن جدي مثل "صحة" المصريين كما ظهر في وفاة المواطنة نورا هاشم محمد، من ناحية أخرى، نتيجة لنقص الإمكانات وإهمال المسؤولين.

هذا الربط ليس اتصاليا فحسب بل تفاعلي كذلك؛ أعني أن المقال لا "يخبرنا" عن المفارقة، بل "يوظفها" بوصفها حجة داعمة لوجهة النظر المبتغَى إقناع القراء بها. يقود اتّباع خطوات التحليل الجدلي التداولي من خلال الانتباه إلى السياق البين–خطابي أو التناصي– محللَ الحجاج إلى بيان أن هذه المفارقة ليست وجهة النظر الأساسية المطروحة في المقال، بل هي حجة داعمة لوجهة نظر في مستوى أعلى، تتعلق بشرعية النظام السياسي القائم آنذاك، وبانعدام استحقاقه لقيادة البلاد؛ وهو ما يمكن للقارئ المتابع لمقالات الأسواني بانتظام استنتاجُه دون عناء (راجع مبحث 1 بخصوص دلالة توقيع كل المقالات بعبارة "الديموقراطية هي الحل")[9].

لكن يُثار السؤال: إذا كان الأسواني يقصد انتقاد النظام السياسي القائم آنذاك، من خلال إبراز تفاوت عنايته بشأنين معيشيين بينهما بون شاسع من حيث أهمية كلٍّ في حياة المواطنين، فلم امتدَّ استخدامه لأسلوب التهكم الضمني ليصيب أناسا غير محسوبين على النظام؟! تحتاج المقاطع الآتية إلى بعض تأمل:

"ولما كان الإعلام الجزائرى قد تورَّط فى السخرية من منتخبنا القومى بطريقة بذيئة فقد قام الإعلاميون المصريون بالرد على ذلك بوابل من الإهانات الموجعة للجزائريين..

وعندما صرحت المطربة الجزائرية وردة بأنها ستشجّع فريق الجزائر، أحس مصريون كثيرون بالغضب وتساءلوا: كيف تجرؤ وردة على تشجيع الفريق الجزائرى، وهى التى تعيش فى مصر وتنهل من خيرها منذ عقود؟! وطالب بعض المدونين على الإنترنت بمنع دخول وردة إلى مصر، عقابا لها على تقاعسها عن تشجيع منتخبنا الوطني...

كما ظهر تدين المصريين العميق واضحا أثناء المباراة وقبلها، فارتفعت دعوات ملايين المصريين إلى الله لكى يسجل الفريق المصرى هدفين على الأقل...

وظهر المطرب إيهاب توفيق فى التليفزيون، وطلب من المشاهدين جميعا الدعاء للمنتخب، مؤكدا أن فى مصر رجالا صالحين كثيرين وهؤلاء قطعا دعاؤهم مستجاب".

قد يكون التهكّم على الإعلاميين ذا صلة بوجهة النظر المطروحة في المقال؛ إذ قد يُنظر إليهم بوصفهم محسوبين على النظام، وإن لم يكونوا في القلب منه، ومن ثم يندغم سلوك هؤلاء وسلوك أولئك في جديلة واحدة للمعنى. غير أن هذا التبرير لا يصلح لتفسير التهكم على ردود أفعال مصريين عاديين تتسم بالمبالغة، مثل "بعض المدونين على الإنترنت"، و"ملايين المصريين" الذين رفعوا الدعوات للسماء، ومطرب معروف!

ليس أمام القارئ عندئذ إلا استبعاد المقتبسات الواردة أعلاه، بوصفها غير ذات صلة بالحجاج المطروح؛ أي بوصفها تحوي أفعالا إنجازية وتأثيرية، لا تُسهم في حل الخلاف في الرأي بالاحتكام إلى معايير المعقولية. هذا الاستبعاد من قبل القارئ هو واحد من أربعة إجراءات تحويلية يمكن من خلالها للمحلل إعادة بناء الخطاب الحجاجي، في ضوء أن النص الحجاجي– أي نص– محل الدرس لا يكون مطابقا للخطاب الحجاجي كما يطمح المحلل الجدلي التداولي أن يكون بعد إعادة البناء التحليلية. هذه الإجراءات الأربعة هي: الحذف (حذف أي أجزاء نصية غير ذات صلة)، والإضافة (إضافة أجزاء نصية جرى استنباطها من وقائع التبادل الحجاجي، مثل إضافة وجهة نظر غير مصرح بها)، والاستبدال (أن تُستبدل بالصياغات الغامضة أو المربكة صياغات أخرى واضحة وذات مغزى)، وإعادة الترتيب (بعد إعادة بناء الخطاب الحجاجي، قد يحل جزء ما من النص جرى تلقطه أولا تاليا لآخر جرى تلفظه لاحقا، وذلك فقا للترتيب المتفق عليه للمراحل الحجاجية) (يُنظر: فان إمرن وخروتندورست، 2004، ص ص102–104)[10].

غير أن هذا الحذف يطرح أجزاء غير هيّنة من مقال– قصير أصلا– خارج نطاق التحليل، وهو ما قد يثير الشك في نفس المحلل، في ضوء أن مقال الرأي السياسي نمط حجاجي متأصل أو جوهري، أي أن الحجاج سمة أصيلة فيه؛ بمعنى أنه إذا خلا المقال من حجاج واضح، أو انعدمت صلة أجزاء معتبرة منه بحل الخلاف في الرأي، كان لزاما على المحلل أن يعيد النظر فيه ليتأكد من غياب أي تفسيرات ممكنة تسمح للمقال بأن يضطلع بوظيفة حجاجية[11].

يلجأ المحلل الجدلي التداولي في حالات كهذه إلى تطبيق استراتيجية التفسير الحجاجي في حده الأقصى؛ فإذا توفرت لدى المحلل أدلة على أن للنص وظيفة حجاجية، وجب عليه أن يفترض أن الأفعال الكلامية الواردة فيه جميعها

إسهاماتٌ قُصِد بها حل الخلاف في الرأي، وعليه حينئذ أن يعيد توجيه مقاصدها الاتصالية، على النحو الذي يجعلها في خدمة الهدف الحجاجي للنص، ما لم يثبت العكس ثبوتا قطعيا (يُنظر: فان إمرن وخروتندورست، 2004، ص ص115–116).

يُمكِن للمحلل، مطبّقا هذه الإستراتيجية، أن يعيد بناء الأفعال الكلامية التي يعبر مضمونها القضوي عن ردود أفعال مبالغ فيها من قبل مصريين عاديين، بوصفها هي الأخرى تعبر عن انتقاد ضمني للترتيب المعكوس للأولويات لدى هؤلاء. هذا الانتقاد يمكن أن يكون في خدمة وجهة نظر أعلى، من النمط التحفيزي، وهي تلك التي يكون مضمونها أن على شخص ما أو مجموعة من الأشخاص أن يفعلوا شيئا ما س (أو يحجموا عن فعله).

ويُعرَف الحجاج المقدّم دعمًا لوجهة النظر التحفيزية بالحجاج الذريعي أو البراجماتي، وهو حجاج ذو بنية متعاضدة؛ إذ يتشكل من مقدّمتين: تدعم إحداهما الرابطة السببية بين فعل ذاك الشيء وحدوث نتائج إيجابية ص (أو بين الإحجام عن فعله وتجنّب نتائج سلبية)، وتدعم الثانية إيجابية النتائج ص (أو سلبيتها في حالة الإحجام) (يُنظر: إينين جوري Ihnen Jory، 2016).

وفي حالتنا هذه يطرح الأسواني وجهة نظر تحفيزية ضمنية، يعاد بناؤها من خلال تقديم تبرير لاستخدام أسلوب التهكم الضمني، مفادُها أن على المصريين إعادة ترتيب أولوياتهم، داعمًا إياها، ضمنيا مرة أخرى، بالرابطة السببية بين إعادة ترتيب الأولويات تلك ودفع النظام إلى إعادة النظر في أولوياته هو كذلك، مما سيؤدي لتحقيق نتائج معيشية أفضل، بخلاف الحال التي وصلت إليها مستشفياتنا آنذاك من القصور الخدمي.

ولمحلل الحجاج من منظور جدلي تداولي أن يستعين بمسوّغ إضافي لإعادة بناء وجهة نظر تحفيزية ضمنية، يتمثّل في تتبع السياق التناصي أو بين–الخطابي للنص؛ فقد كان أمرا شائعا في مقالات الكاتب دعوة قرائه صراحة للإقدام على فعل سياسي ما، مثل مساندة إضراب 6 أبريل 2009، أو مساندة حركة (كفاية)، أو الانضمام لـــ(الجمعية الوطنية للتغيير)، إلخ، من بين أمور عدة حفل بها الظرف الملتهب الذي سبق زلزال يناير 2011.

2. 3. تقييم معقولية الخطاب الحجاجي في ضوء بنيته الحجاجية

يمكن الآن للمحلل من منظور جدلي تداولي أن يقدم مخططا لبنية المقال بوصفه خطابا حجاجيا؛ مما يساعد في بيان الكيفية التي تترابط بها الحجج دعما لوجهة النظر المطروحة بوضوح أكبر، وتقييم الحجاج المطروح من ثم. سأوضّح أولا دلالة الرموز الواردة في المخطط التالي.

يشير الرقم المنفرد (1 أو 2 أو 3) إلى واحدة من وجهات النظر المطروحة في الخطاب. ويشير إضافة رقم مسبوقا بنقطة إلى الحجة الداعمة لمقبولية وجهة النظر. في حالة إضافة رقم منفرد، يعني ذلك أن الحجاج الداعم مفرد؛ أي أن حجة واحدة تدعم مقبولية النظر. وفي حالة الحجاج المتعاضد، حيث تدعم مقبولية وجهة النظر حجتان (أو أكثر) مجتمعتين، يُضاف حرف إلى الرقم (1أ و 1ب و 1ج، وهكذا)[12]. وإذا كانت وجهة النظر أو الحجة مطروحة على نحو ضمني، يوضع رقمها بين قوسين ( ). أما الفاصلة المرفوعة (‘) فتشير إلى المقدمة غير المعبر عنها، أي القضية التي تنقل المقبولية من الحجة إلى وجهة النظر.

(1) لا يدير نظام مبارك البلاد بالكفاءة المطلوبة

((1).1) النظام لديه ترتيب مقلوب للأولويات

(((1).1).1أ) يولي النظام اهتماما مبالغا فيه بنشاط ترفيهي مثل مباريات كرة القدم

((((1).1).1أ).1أ) حرص كبارُ رجال الدولة (الرئيس– أبناؤه– الوزراء) على حضور مباراة المنتخب الوطني ونظيره الجزائري بأنفسهم

((((1).1).1أ).1ب) ظهرت على كبار رجال الدولة أمارات الانفعال المبالغ فيه تأثرا بأحداث المباراة

(((1).1).1أ).1ج خصص اتحاد كرة القدم مبلغ 6 ملايين جنيه لكل لاعب في حالة الفوز

(((1).1).1ب) في الوقت نفسه الذي يولي فيه اهتماما أقل منه بكثير بنشاط جدي مثل صحة المصريين

((((1).1).1ب).1) تعاني المستشفيات الحكومية من انعدام الكفاءة

(((((1).1).1ب).1).1أ) تشخص حالات المرضى تشخيصا متضاربا

((((((1).1).1ب).1).1أ).1) شخصت حالة نورا هاشم محمد بأكثر من تشخيص بين مستشفيين حكوميين

(((((1).1).1ب).1).1ب) يجبر المواطنون على دفع تكاليف باهظة في مستشفيات يُفترض أنها تعالج المواطنين بالمجان

(((((1).1).1ب).1).1ب).1 طلب من زوج نورا دفع مبلغ ألفي جنيه إذا أراد علاج زوجته

(((((1).1).1ب).1).1ج) يعامل العاملون بالمستشفيات الحكومية المرضى دون اكتراث بحياتهم

(((((1).1).1ب).1).1ج).1 تقاعست طبيبة التحاليل بمستشفى العمرانية عن إجراء التحاليل اللازمة لنورا

(2) ينبغي على المصريين أن يعيدوا النظر في ترتيب أولويات اهتمامهم بالشأن العام

((2). 1أ) سيؤدي ذلك إلى إظهار اهتمام أكبر بشؤون جدية على حساب الاهتمام بشؤون ترفيهية

((2). 1ب) وإظهار المصريين لاهتمام أكبر بالشؤون الجدية على حساب الاهتمام بشؤون ترفيهية أمر مرغوب فيه

(((2). 1ب). 1) إظهار المصريين لاهتمام أكبر بالشؤون الجدية (يمكن أن) يدفع النظام إلى أن يوليها مزيدا من عنايته و(((2). 1ب). 1)' وإيلاء النظام مزيدا من عنايته بالشؤون الجدية أمر مرغوب فيه

((((2). 1ب). 1)'. 1) إيلاء النظام مزيدا من عنايته بالشأن الصحي، مثلا، (يمكن أن) يحول دون وفاة المواطنين ضحايا للإهمال الطبي في المستشفيات الحكومية [كما في حالة نورا]

ليس توضيح الكيفية التي تترابط بها وجهات النظر المطروحة بالحجج الداعمة لها، من خلال تصميم مخطط مثل المعروض آنفا– أمرا مقصودا لذاته، بل هو طريقة للعرض البصري، تتيح للمحلل– الجدلي المتبني لمنظور معياري– أن ينظر في نقاط القوة والضعف المحتملة في سلاسل الحجج المقدمة، تمهيدا لتقييمها من حيث ترجيح المناوئ لمقبولية الحجاج من عدمه. والمناوئ هنا ضمني، وهو أيّ قارئ محتمل للمقال، سستقبل الخطاب استقبالا نقديا بالاستعانة بمعايير المعقولية كما صاغها المنظّرون الجدليون التداوليون[13].

يلاحَظ ابتداءً أن مأساة نورا تنحلّ إلى ثلاث حجج (مظللة باللون الرمادي في المخطط)، يعدّ كل منها حجاجا بالمثال يدعم مقبولية وجهة نظر أعلى (1.1.1ب.1.1أ، ب، ج)، وتشكل وجهات النظر تلك مجتمعة بدورها حجاجا متعاضدا،

يدعم مقبولية وجهة النظر الأعلى المتعلقة بإهمال النظام لشأن جدي مثل صحة المصريين، التي تجتمع وحجة الاهتمام بشأن ترفيهي مثل كرة القدم، لتشكل حجاجا متعاضدا آخر، على مستوى أعلى، يدعم مقبولية وجهة النظر الأولى المطروحة في المقال، المتعلقة بانعدام كفاءة النظام في إدارته لشؤون البلاد.

وفقا للمنظور الجدلي الذي يتبناه المحلل، فإن المناوئ سيُجري إجراء الاختبار النقدي؛ أي أنه سيحاول التيقن من صلاحية نقل المقبولية من الحجج إلى وجهات النظر، من خلال طرح الأسئلة النقدية الملائمة للمخططات الحجاجية المستعملة، ومن بينها الحجاج بالمثال.

يقترح الجدليون التداوليون سؤالين نقديين لاختبار صلاحية هذا المخطط الحجاجي، يتعلق أحدهما بالتمثيل: هل يعد المثال المطروح مثالا حقا للقاعدة المعممة في وجهة النظر؛ ويتعلق الآخر بالكفاية: هل عدد هذه الحالات كافٍ لاستنباط هذا التعميم؟ وبطبيعة الحال لا يعد الحجاج مقبولا ما لم يتمكن المناصر– صراحة أو ضمنا من الإجابة على هذين السؤالين إجابة مرضية، ويمكن حينها اتهام المناقِش بارتكاب مغالطة التعميم المتسرع hasty generalization (يُنظر: فان إمرن وآخرون، 2007، ص 155).

ربما لا يجد المناوئ صعوبة في الإجابة بنفسه عن السؤال النقدي المتعلق بالتمثيل؛ فحالة نورا تمثل إهمالا جسيما في حق مواطنة مصرية، لكن تظل الصعوبة كامنة في سؤال الكفاية. ليس بافتراض بعيد التحقق أن المناوئ سيرى في هذا المثال موزعا على حجج ثلاث تعميما غير مقبول، وهو أمر يمكن تفهمه في حالات التدليل على مقبولية تعميم ما بتقديم مثال وحيد، ويتَّسِق مع دعاوى الأنظمة السياسية بأن وجوه التقصير في أدائها الخدمي إنما يعد حالات استثنائية لا يقاس عليها. يعني ذلك أن مقبولية وجهة النظر (1) عرضة للإضعاف أو أن تكون محل شك. صحيحٌ أن الأمثلة الثلاثة المستقاة من أحداث المباراة، التي تمثل حُجَجًا داعمة لوجهة النظر الفرعية (1.1.1أ)، يمكن أيضا القول إنها صور للتعميم المتسرع، لكن عدد الأمثلة هنا أكبر وأكثر تنوعا، وإذا رأى المناوئ في واحدة منها ضربا من ضروب التعميم المتسرع، فإن ذلك لا يؤدي على نحو آلي إلى نزع المقبولية عن وجهة النظر نزعًا تاما، بل يؤدي إلى إضعاف[14] تلك المقبولية فحسب.

ولا يتعلق التحليل برفع درجة الشك في مقبولية وجهة النظر التقييمية (1)، بل بوجهة النظر التحفيزية (2) كذلك. فإذا تأملنا سلسلة الحجاج المقدَّم دعما للأخيرة، لوجدنا أن انعدام كفاءة المستشفيات الحكومية أو معاناتها من الإهمال الطبي هو الافتراض المسبَق في الحجة (2. 1ب. 1 ‘. 1): "إيلاء النظام مزيدا من عنايته بالشأن الصحي، مثلا، (يمكن أن) يحول دون وفاة المواطنين ضحايا للإهمال الطبي في المستشفيات الحكومية". وإذا فعَّل المناوئ ملكته الناقدة كما ينبغي، وكما يفترض المحلل الجدلي التداولي أنه "ينبغي" له أن يفعل، فإن إضعاف مقبولية وجهة النظر الفرعية (1.1.1ب.1) "تعاني المستشفيات الحكومية من انعدام الكفاءة" من خلال طرح الشك في صلاحية تعميم مأساة نورا يمكن أن ينسحب على إضعاف مقبولية الحجة (2. 1ب. 1‘. 1) التي تعد (1.1.1ب.1) أحد افتراضاتها المسبقة، وهو الأمر الذي سيؤدي بدوره إلى إضعاف مقبولية المقدمة غير المعبر عنها (2. 1ب. 1‘)، وهلم جرا، وصولا إلى وجهة النظر (2).

يعني التحليل السابق أن دارس الخطاب الحجاجي من منظور الجدل التداولي سيقيّم محاولة كاتب المقال إضفاءَ دلالة سياسية على وفاة مواطنة بإحدى المستشفيات الحكومية بوصفها محاولة غير ناجعة بدرجة ما لتجاوز المأزق الحجاجي، مع تسجيله لملاحظة أن المقال يمثل حالة نموذجية لنشاط لغوي يخرق الأعراف التداولية خرقا ظاهريا، لكنه يبيّن أنه يمتثل لها على المستوى الفعلي، بعد أخذ كل المعلومات المتعلقة بمستويات السياق بعين الاعتبار.

3. تحليل تداولي إدراكي للمقال

وإذا كان محللو الحجاج من منظور جدلي تداولي منشغلين- كما تبيَّن- بتقييم الممارسات الحجاجية في ضوء موافقتها أو مخالفتها لمعايير المعقولية، فإن محللي الحجاج من منظور تداولي إدراكي منشغلون بتفسير العملية الأبسط التي لا بد لها من أن تسبق التقييم؛ وهي الفهم: كيف يفهم المحاججون العاديون، لا المنظرون بالأساس، الممارسات الحجاجية؟ وهو ما يقود هؤلاء المحللين إلى سبر أغوار العمليات الاستدلالية التي تحدث في أدمغة القائمين بالاتصال لكشف الدينامية التي يعمل بها الدماغ البشري وهو يحاول تتبع صلة الملفوظات التي يتلقاها.

يفصّل الباحث السويسري، أوزوالد Oswald (2007)، هذه النقطة، ويرى أن "الحجاج في الجدل التداولي لا يُدرك بوصفه عملية إدراكية حتى أنه لا يسائل صراحة الآليات التي يتعامل العقل البشري من خلالها مع الاتصال. فللجدل التداولي مستويان من التفسير: المستوى الأصغر الخاص بقواعد أفعال الكلام المستخدمة في إنجاز أفعال الكلام والتمييز بينها. هذا الصنف من التفسير ليس داخليا بالمعنى الإدراكي، في غيبة أي مصدر لإجراءات إدراكية تفصل القول بشأن فهم أفعال الكلام. في المستوى الأكبر ثمة شرح لإجراء النقاش النقدي التي تتم وفقا لقواعد تواضع عليها المنظرون وصاغوها. يعتمد هذا المستوى على مقاربة خارجية للغة حيث يعاد بناء التلفظات بوصفها مكونا اجتماعيا غير ذي صلة بأية رؤى إدراكية" (أوزوالد، 2007، ص157).

لقد صارت النظرة إلى فهم التلفظات، منذ أن قدم جرايس Grice إسهامه حول منطق المحادثات (1975)، أعمق بكثير من الرؤية التبسيطية لعمليات الاتصال بوصفها مجرد تشفير من قبل المتكلم أو الكاتب، وفكٍ لهذا التشفير من قبل السامع أو القارئ. وغدا باحثون تداوليون منشغلين بالكشف عن المبادئ والقواعد التي تنظم عمليات الفهم والاستقبال، وفي القلب منها تحديد الآليات الاستنتاجية التي تعمل على تحديد مقاصد المتكلمين من تلفظاتهم. ومن ثم؛ فإن فهما علميا منضبطا لما يحدث في الواقع الحجاجي يقتضي تقصّي العمليات الاستدلالية التي تحدث في أدمغة القائمين بالاتصال، بما تنطوي عليه هذه العمليات- كما سيلي تفصيله- من دقة أو خلل (يُنظر: مايه Maillat وأوزوالد، 2011، ص76).

3. 1. العدة النظرية للتداوليين الإدراكيين

تُعدّ نظرية الصلة أو الملاءمة كما صاغها سبيربر Sperber وويلسون Wilson (1982؛ 1995) العدة النظرية الأساسية للتداوليين الإدراكيين، وقد أسَّسا- سبيربر وويلسون نظريتهما على افتقار البشر للموارد والوقت الكافيين لمعالجة كل المعلومات المتاحة لفهم تلفظ ما. والفهم لديهما تحديدٌ للصلة السياقية لما يُنتوى إيصاله.

إن الإدراك البشري، وفقا لنظرية الصلة، مدفوعٌ صوب تحقيق أقصى قدر ممكن من الصلة؛ فكل محفز ظاهر يتضمن افتراضا بكونه ذا صلة قصوى بالسياق المعطى؛ ولهذا فإن الصلة من خصائص التلفظ؛ بمعنى أن النظام الإدراكي للبشر يعي أن عليه بذل جهد ما لإيجاد الصلة السياقية للتلفظ.

يصوغ سبيربر وويلسون (1982؛ 1995) شرطين تتحدد على أساسهما المعلومات ذات الصلة في سياق معطى على النحو الآتي:

الشرط الأول: يكون افتراض ما ذا صلة بقدر ما تكون الآثار السياقية لهذا الافتراض كبيرة في هذا السياق.

الشرط الثاني: يكون افتراض ما ذا صلة بقدر ما يكون الجهد المتطلب لمعالجة هذا الافتراض قليلا في هذا السياق.

تعمل الفاعلية السياقية، كما ترد في الشرط الأول، على تأمين وسط إدراكي أكثر ملاءمة وموثوقية[15]. وتتحدد هذه الفاعلية تحددا إبستيميا، من خلال آثار ثلاثة: إضافة معلومات جديدة موثوق بها، وحذف معلومات قديمة غير موثوق بها، ومراجعة معلومات قدبمة لكنها غير أكيدة.

أما الشرط الثاني فيتعلق بالجهد المبذول في معالجة المعلومات، وينص على أن المعلومات ذات الصلة هي تلك التي تتطلب قدرا قليلا من الجهد حتى يصل إليها السامع من خلال العمليات الاستدلالية. ويصل سبيربر وويلسون إلى افتراض عام، مفاده أن الأكثر صلة بين كل المعلومات هي تلك التي تجسّد التوازن الأمثل بين الجهد الإدراكي المبذول والأثر الاستدلالي الناتج (يُنظر: سبيربر وويلسون، 1995، ص125).

ينطلق التداوليون الإدراكيون من لا عصمة الإدراك البشري، ووقوعه الحتمي في الزلل والخطأ، وهو ما يمنحنا من ثم تصورا مختلفا عما يكون عليه المحاجج فعليا في السياقات الواقعية؛ فبدلا من صورة المحاجج العقلاني المنتبه لمعايير المعقولية الذي "يُفترض" أنه لن ينتهك أيا منها أو يقبل انتهاك غيره لها، ترسم نظرية الصلة تصورا آخر حول محاجج عادي يعالج المعلومات المتاحة له معالجة سطحية؛ مما يترتب عليه إقدامه على ممارسات تلاعبية أو وقوعه ضحية لها على نحو حتمي.

تتسم العمليات الاستدلالية الإدراكية (التي هي في القلب من أي ممارسة حجاجية) بأنها سطحية بالضرورة؛ إذ يستعين البشر فيها باختصارات إدراكية cognitive shortcuts، فالدماغ البشري غالبا ما يُنتِج مخرجاتِه من خلال إجراءات عرضة للخطأ، تتضمن قدرا من المخاطرة؛ مما يؤدي إلى أخطاء في الأحكام لأنه– الدماغ– مصممٌ تطوريا لمعالجة معلومات معينة، وهي الافتراضات الأكثر بروزا، بعين الاعتبار وإهمال سواها. ينشّط المخاطَب من خلال هذه المعالجة أكثر الافتراضات المفهومية بروزا، وهي ظاهرة تعرف بالمعالجة السطحية. (يُنظر: مايه وأوزوالد، 2009، ص392؛ 2011، ص66).

وبناءً عليه ينظر التداوليون الإدراكيون إلى البشر بوصفهم كائنات متفائلة من الوجهة الإدراكية، لديهم ثقة مفرطة في الافتراضات السياقية المحدودة التي يمكنهم استحضارها عند معالجة تلفظ ما؛ ثقة غير قابلة للتقويم؛ فالبشر على يقين

من أن عملياتهم الإدراكية التلقائية تحظى بدرجة عالية من الموثوقية، وأن مخرجات هذه العمليات لا تحتاج إلى إعادة نظر (يُنظر: سبيربر وآخرون، 1995).

والبشر من منظور هؤلاء ليسوا فحسب كائنات متفائلة من الوجهة الإدراكية، بل منحازة انحيازا حتميا؛ فأدمغتهم ترتكب عادة أخطاء في الحكم، والتفكير، والتذكر؛ لأنهم يؤسسون أحكامهم تلك على إستراتيجيات تتعلق باتخاذ القرار، تطورت ليتواءم الإنسان مع حالات اللايقين، ومحدودية الموارد، وضغوط الوقت، هذه الاستراتيجيات بطبيعتها المتسرعة والمقتصَدة يمكنها أن تؤدي أحيانا إلى أخطاء فادحة، وإن تكن مفيدة إجمالا؛ إذ تعين المرء على اتخاذ قرارات تجمع بين السرعة وبذل القليل من الجهد (تفيرسكي Tversky وكانيمان Kahneman، 1974).

غير أن سبيربر وآخرين (2010) طرحوا مؤخرا فكرة أن النظام الإدراكي طوَّر آلية مراجعة تعرف باليقظة الإبستيمية لا تجعلنا أسرى تماما لأوهامنا الإدراكية، ولاعتقادنا الساذج بأن أنظمتنا الإدراكية تعمل بكفاءة مثلى. تعوض تلك الآلية قصور نظامنا الإدراكي عن بلوغ الكفاءة، وتتشكل مما يشبه المرشحات Filters التي تضمن أن الآليات الإدراكية الحاكمة للتفسير ليست خاضعة للتضليل أو التفخيخ أكثر من اللازم. على هذا النحو يمكن للمرء التنبؤ بأن اليقظة الإبستيمية وثيقة الصلة بالاستخدام التلاعبي للغة إجمالا، والمغالِط خاصة، من حيث إن تلك المرشحات تعمل في الاتجاه العكسي للخضوع للأوهام الإدراكية المختلفة (يُنظر: سبيربر وآخرون، 2010).

3. 2. تشكيل السياق من منظور تداولي إدراكي

وبخلاف الجدليين التداوليين الذين ينظرون إلى السياق بوصفه عاملا معطى سلفًا، يفرض سطوته على الحدث الاتصالي، ينظر التداوليون الإدراكيون إليه بوصفه جملة من الافتراضات الحوارية، ينتقيها المشاركون في الاتصال *ظنًّا* منهم أنها ذات صلة. تجري معالجة التلفظات، وفقا لنظرية الصلة، على خلفية مجموعة من الافتراضات السياقية التي يحشدها السامع، مفترضا أنها تتوافق مع تلك التي يختزنها المتكلم في عقله في زمن التلفظ. ويتمثل تحقيق الصلة في الوصول إلى نقطة يتلاقى فيها تلفظ المتكلم من ناحية، بالافتراضات السياقية للسامع من ناحية أخرى، على نحو يهيئ لظهور تفسيرات، تُمثل التناسب الأمثل بين الجهد الإدراكي المبذول والنتائج السياقية (مايه وأوزوالد، 2011، ص ص65–66، 69).

وتتسم عملية اختيار السياق بأنها دينامية؛ أي يتركب فيها السياق من خلال جمع الافتراضات والمعلومات التي يمكن استخدامها لمعالجة التلفظ. ويعطي اختيار السياق مزية للتمثلات البارزة: تلك التي يسهل الوصول إليها، والأخرى القوية (من حيث درجة الصلاحية validity الإبستيمية التي يمكن أن تُعزى إليها)؛ إذ إن سهولة الوصول إلى التمثلات تسهم في اختيار يتمتع بدرجة كبيرة من الاحتمالية، وقوتها تسهم في تحقيق صلاحية محتملة بدرجة كبيرة. كما تتسم عملية بناء السياق بكونها عملية منظّمة، تبدأ من الافتراضات التي يسهل الوصول إليها دون عناء، ثم تتدرّج نحو افتراضات أكثر عناء في الوصول إليها، حتى يصل السياق إلى حالة من الصلة القصوى التي يكون بعدها إدراج افتراضات أخرى أمرا شديد العناء من ناحية يُسر الوصول إليها، إلى جانب أن الأثر الإدراكي لذلك (إضافة معلومات جديدة) يغدو محدودا؛ أي يصير التوازن المثالي بين الجهد والأثر غير متحقّق (يُنظر: مايه وأوزوالد، 2011، 70).

غير أن سبيربر وويلسون لا يقولان إن ذلك الوضع المثالي متحقق دوما، بل ثمة احتمالات للوصول إلى أوضاع غير مثالية؛ فالأمر يتعلق بوفرة الموارد الإدراكية وخصوصية البيئة الإدراكية للسامع، ومن ثم فإن النسق التداولي الذي تطرحه نظرية الصلة قد لا يخطئ فحسب، بل إن النظرية كذلك تتنبأ بصنوف من الأخطاء التي قد تؤدي بهذا النسق للخلل مما يؤدي إلى إنتاج تفسير دون مثالي، كما في حالات الاستخدامات التلاعبية للغة (يُنظر: مايه، 2013، ص ص193–194).

3. 3. الرهانات التداولية الإدراكية لكاتب المقال

لقد مرَّ بنا في المبحث (2. 3)، وفي ضوء الوصف الجدلي التداولي لبنية الحجاج الموظَّف في المقال، كيف أن قارئ مقال الأسواني قد يتهمه بالتلاعب لارتكابه مغالطة التعميم المتسرع؛ نتيجة لاعتماده حجاجا باستخدام مثال واحد بوصفه حجة داعمة لمقولة معمَّمة.

تعكس هذه الملحوظة البعد المعياري للمقاربة الجدلية التداولية، غير أن محلل الخطاب الحجاجي من منظور تداولي إدراكي سيتعمق في هذه الملحوظة مغلبا البعد التفسيري لمقاربته، ناظرا إلى احتمالية ارتكاب مغالطة من منظور مختلف؛ إذ "ربما تكمن واحدة من أكبر مزايا اللجوء إلى إطار إدراكي بغية تفسير الاتصال المغالط التلاعبي– في قدرة هذا الإطار على تفسير العملية الاستدلالية لدى طرفي الإنتاج والتلقي على قدم المساواة. وعليه فإن من شأن التفسير الإدراكي أن يوضح فشل المتلقي في التعرف على المغالطات من خلال الميل المفترَض إلى جذب الانتباه للمعلومات التي تهيئ ظروف النجاح للمغالطة؛ أي تجذب الانتباه بعيدا عن المعلومات الجوهرية. هنا، مرة أخرى، يمكن تفسير إدارة الوصول إلى المعلومات في ضوء السمات النفسية الإدراكية لطريقة معالجتنا للمعلومات غير المعصومة من الخطأ والمنحازة بالضرورة" (أوزوالد وآخرون، 2016، ص521).

سيسأل محلل الحجاج من منظور تداولي إدراكي السؤال الأوليّ الآتي:

1 – ما الطرائق التي تعين الأسواني على تقييد سياق التفسير بهدف تمرير تلك المغالطة من دون أن ينتبه القارئ إلى طبيعتها التلاعبية؟

وانطلاقا من أن "الاتصال التلاعبي عملية مزدوجة، يتلاقى فيها تضييق الخيارات السياقية بالتلفظ المستهدف بغية 1) فرض تفسير معين في سياق محدد ومحدود، و2) والحؤول – الفاعل – دون الوصول إلى أية افتراضات سياقية بديلة.. يتضمن الخطاب التلاعبي بعدين رئيسين: من ناحية يحث الخطاب التلاعبي السامع على معالجة المعلومات في سياق تفسيري شديد الضيق، ومن ناحية أخرى، في الوقت نفسه، يتيقن المتلاعب من أن السامع ممنوع من توسعة السياق بما لا يسمح له باستدعاء افتراضات أخرى (تتعلق بعدم توافق المتلفظ مع قناعات سابقة، أو تتعلق ببواعِث المتكلّم) إلى مجاله الإدراكي" (مايه وأوزوالد، 2011، ص71)– انطلاقا ماسبق، بالإمكان تفريع السؤال (1) إلى سؤالين فرعيين:

1أ – ما الافتراضات التي حشدها الأسواني في مقاله (جعلها أكثر بروزا) ليكون وصول قرائه إليها أكثر يسرا لكي يحفّز قراءه على تقييم حجاجه بالمثال باعتباره حجاجا سليمًا؟

1ب – وفي المقابل، ما الافتراضات الأخرى، ذات الصلة، التي جعلها الأسواني أقل بروزا ليتمكن من تحقيق الهدف نفسه؟

من المهم ألا ننسى أننا بصدد تحليل خطاب حجاجي في نهاية المطاف، حيث يهدف منشئ الخطاب إلى إقناع متلقيه. ويفترض التداوليون الإدراكيون أن متلقي الخطاب (أو المناوئ بتعبير الجدليين التداوليين) يعالج التلفظات متحليًّا باليقظة الإبستيمية. وفي المقابل يحاول منشئ الخطاب دفع متلقيه إلى تبني استراتيجية ساذجة متفائلة للتفسير من خلال تثبيط اليقظة الإبستيمية للمتلقي، وجعلها تعمل في حدها الأدنى، عبر تقديم أمارات على نزاهته- منشئ الخطاب- وموثوقيته (دي سوسير de Sassure، 2018، ص183). يمكننا في ضوء ما سبق أن نضيف سؤالا آخر للسؤالين السابقين:

2 – ما الوسائل التي يستعين بها الأسواني لتثبيط اليقظة الإبستيمية لقارئه حتى يتمكن من تمرير ممارساته الحجاجية التي يحتمل اتهامه بكونها مغالطة، وتلاعبية من ثم؟

للإجابة عن السؤالين 1أ و 1ب، سننطلق من افتراض أن جملة المعلومات "المطروحة في الطريق"، إن جاز التعبير، التي "يمكن" لها أن تشكّل الوسط الإدراكي[16] لقارئ مقال الأسواني هي جملة الأخبار الواردة في أعداد صحيفة الشروق الصادرة في الفترة السابقة على نشر المقال موضوع التحليل بالصحيفة نفسها، والمتعلقة بالشأنين العامّين اللذين يحاول الأسواني ربطهما لإضفاء دلالة سياسية مقصودة: الشأن الصحي في ظل وباء أنفلونزا الخنازير، والشأن الكروي في ظل مباراة الفريقين المصري والجزائري[17].

سيطول بنا المقام لو استعرضنا نصوص الأخبار المتعلّقة بالشأنين نصًّا نصًّا، لكن يمكن- بتبسيط مخل- تحديد الخط الناظم لها من خلال تحليل مضمون سريع، يكشف عن الافتراضات التي تمنحها تلك الأخبار بروزا أكبر، ويكون وصول القارئ لها أيسر. فيما يتعلق بالشأن الصحي ركزت الصحيفة على تفشي وباء أنفلونزا الخنازير، وأبرزت المضامين الآتية:

1 – الدولة تعلن عن جاهزية مستشفياتها العامة لمواجهة الأزمة.

2 – هناك تفشٍّ "متصاعد"، وإن ظل تحت السيطرة، للوباء.

3 – الحكومة تسارع باتخاذ إجراءات احترازية بالمدارس والجامعات حماية للطلبة تسببت في إغلاق بعض المدارس والمدن الجامعية.

الأكثر صلة بالمقال المدروس، هو أنه في عدد الخامس من الشهر نفسه ثمة خبرٌ عن حالة "نورا" المُشار إليها في المقال، مع إبراز اعتصام العاملين بمستشفى الصدر والحساسية "احتجاجا" على تحويل وزير الصحة مديرَ مستشفى الصدر والحساسية بإمبابة وبعضا من العاملين بها إلى النيابة، وذكرِ لمعلومة مفادها أن المتوفاة كانت مخالطة لطيور منزلية، وأن الأطباء قد شخصوا معاناتها من الأنيميا الحادة وضعف المناعة. وفي عدد العاشر من نوفمبر خبر عن إخلاء سبيل النيابة للمحالين إليها؛ مما قد يعطي انطباعا باقتناع النيابة بعدم وجود ضرورة لحبسهم احتياطيا على ذمة القضية.

وفيما يخص الشأن الكروي، فقد نظرت إليه الصحيفة من منظور قومي. ففي عدد الرابع عشر من نوفمبر، يوم المباراة بين الفريقين المصري والجزائري، خُصّصت معظم صفحات العدد لاستطلاع آراء شرائح اجتماعية، ما بين فنانين وسياسيين ورموز اجتماعية، بخصوص المتوقع لنتيجتها، والمعاني التي تحملها. وقد توزَّع هؤلاء السياسيون بين الحكم والمعارضة!

إذا كان ممكنا للمعلومات الواردة أعلاه أن تشكل– افتراضا– الوسط الإدراكي لقراء الأسواني، فإنه يقيد السياق من خلال إيراد الافتراضات التي تخدم وحدها غرضه الإقناعي، فتكون أكثر بروزا، وأيسر إلى الوصول إليها، ويستغل الجهد الإدراكي الأقل في توظيفها فتتحقق الصلة المثلى، مثل تلك المعلومات المتعلقة بفقر الضحية، والمعاملة السيئة التي يقول أهلها أنهم تلقوها، إلخ. العكس يحدث أيضا؛ أعني التعمية على الافتراضات التي قد تعين متلقي الخطاب على تكوين أدلة نقيضة، مثل اعتصام العاملين بالمستشفى احتجاجا على تحويل المدير إلى النيابة الذي يعني ضمنا اقتناعهم بأن المسئولية بالمستشفى قد قاموا بما يتحتم عليهم فعله، أو ضعف مناعة المتوفاة ومخالطتها لطيور منزلية مما قد يعني ضمنا أن الوفاة ربما كانت– جزئيا على الأقل– نتيجة لأسباب خارجة عن إرادة الطواقم الطبية. يراهن الأسواني على عسر وصول قرائه إلى أي افتراض من شأنه تحميل المسؤولية لأي كيان أو شخص، بخلاف النظام السياسي الحاكم في التمثيل الأعلى له.

أمر شبيه يحدث في حالة الشأن الكروي؛ فليس السياسيون والفنانون المحسوبون على النظام هم وحدهم الذين اهتموا بالمباراة هذا الاهتمام البالغ، بل شاركتهم فيه أطياف مسيَّسة يمكن أن تحسب على المعارضة بدرجاتها المتنوعة. لكن المقال يبرز في الصدارة رموز النظام: الوزراء والرئيس وابنيه، فيستدل القارئ بيسر على المفارقة بين سلوك النظام في شأن جدي خطير وآخر تافه، دون أن يتطرق إليه شك حول شيوع هذه المفارقة، أو يتشكّك في توصيفها بالمقارقة من الأساس، أو يستدعي إلى الذهن حالاتٍ لسياسيين ورؤساء جمهوريات عبروا عن فرحتهم الغامرة بفوز منتخباتهم أمام شاشات التليفزيون بدون تحفظ من دون أن يكون لذلك صلة بأدائهم الجيد أو السيئ في الشأن العام[18]. يُيَسِّر الأسواني على قارئه تحقيق المعادلة الذهبية للصلة؛ فالقارئ يبذل الحد الأدنى من الجهد الإدراكي باستغلال افتراضات متاحة بارزة لتحقيق أكبر قدر ممكن من الآثار الاستدلالية المقصودة من قبل منشئ الخطاب التي تتعلق بالمفارقة السياسية الصارخة بين اهتمام مبالغ فيه بشأن عام تافه، وإهمال بيّن لشأن عام جديّ.

يقترح هذا البحث أن الأسواني يوظف اختصارا إدراكيا شديد الشيوع لتمرير حجاجه. تقدّم أن العمليات الإدراكية التي تجري من خلالها معالجة المعلومات سطحية بالضرورة، يستعين البشر فيها باختصارات إدراكية تنتج مفاهيم توصف بأنها غرضية، لأنها ليست على اتساق مع جملة من الافتراضات المفهومية المتكاملة المرتبطة بحقيقة المفهوم محل النقاش أو التفسير. وتنطبق تلك الخصيصة– الاستعانة باختصارات– على عمليات الاستدلال التي هي في القلب من أي ممارسة حجاجية. ويهدف ألوتAlott إلى بيان أن معالجة التلفظات قد يعتمد على هذه الاختصارات، أحيانا على حساب مراعاة الاتساق والسلامة المنطقية، ضمن قيد عام يتعلق بالكفاءة (ألوت، 2008).

وأقترح أن الأسواني يستغل اختصارا إدراكيا يمكن تسميته باختصار "الضحية–الجاني"؛ فمتى برز على مسرح الإدراك شخص أو كيان أو مجموعة بشرية تمر بظروف صعبة للغاية تثير الشفقة، فإن النظام الإدراكي يميل إلى البحث عن "جانٍ" مجسَّد أو مشخصَن سبَّب الأذى لهذه الضحية. وإذا حدث أن ظهر على مسرح الإدراك مجموعتان متقابلتان من التمثيلات بالتوازي، تصور إحداها شخصا أو كيانا أو مجموعة بشرية في وضع سيئ مثير للتعاطف، وتصور الأخرى شخصا أو كيانا أو مجموعة أخرى في وضع جيّد لا مبالٍ، نشأ ميل لدى النظام الإدراكي إلى تحميل الثاني المسئولية عما

يتعرض له الأول، وإن ظلت الافتراضات الداعمة لهذا التصور محدودة، وبدون كثير تعمّق في افتراضات بديلة ممكنة، قد تُرجع الوضع السيئ الذي تعيشه المجموعة الأولى إلى أسباب أخرى[19].

يراهن الأسواني على أن هذا الاختصار الإدراكي سيساعده في التعمية على أسئلة نقدية، قد تعمل على تفنيد حجاجه، وتتعلق بصلاحية الربط السببي المباشر بين معاناة فرد واحد أو عائلة واحدة (نورا وعائلتها في هذه الحالة) والنظام السياسي في أعلى تمثيلاته، على الرغم من وجود سلسلة طويلة من المسئولين، تبدأ من العاملين والأطباء، وصولا إلى مجموعة من المديرين وانتهاء بوزير الصحة، ورئيس مجلس الوزراء، فرئيس الجمهورية نفسه.

فبدلا من تقديم "الجاني" في صورة ظروف معقدة تشكلت تاريخيا يمكن أن يتحمل مسئوليتها جهات وأفراد عدة، يراهن الأسواني على أن النظام الإدراكي لقارئه– مثله في ذلك مثل الإدراك البشري إجمالا– سيسقط من حسابه تلك الظروف المعقدة، ويميل إلى تحميل مسئولية ما تعرضت له "الضحية" من أذى إلى "جان" واحد لا مبالٍ. وهنا تكمن المزية الإدراكية– من منظور الهدف الإقناعي لكاتب المقال– للصياغة السردية الباعثة على التعاطف لقصة "نورا" ووضعها في تقابل وتواز مع الصياغة المباعثة على استفزاز القارئ لردود الأفعال المبالغ فيها الصادرة عن رموز النظام والمحسوبين عليه؛ إذ تُسهم في تنشيط اختصار "الضحية–الجاني" قدر الإمكان.

تجيب الفقرات السابقة عن السؤالين 1أ و1ب المتعلقين بتقييد السياق، لكن ماذا عن السؤال 2 المتعلق باليقظة الإبستيمية؟

تعمل اليقظة الإبستيمية على مستويين: أحدهما استدلالي يتعلق بالبحث في صلة الملفوظات بعضها ببعض، وبمقاصد المتكلمين، والآخر تقييمي يتعلق بصلاحية تلك الملفوظات وصدقيتها. يمكن القول إن اليقظة الإبستيمية تعمل عند تلقي الخطابات الحجاجية على مستويين موازيين: يتعلق الأول باختبار المقصد الاتصالي للمحاجِج (ما الذي يريد أن يقوله بالضبط؟)، في حين يتعلق الآخر باختبار المقصد التفاعلي للمحاجِج (هل تصلح الحجج المقدمة لأن تكون دفاعا معقولا عن مقبولية وجهة النظر؟).

ربما علينا أن نضيف شيئا حول اليقظة الإبستيمية في علاقتها بخصوصية الموقف الاتصالي؛ أعني في هذه الحالة قراءة مقال رأي منشور بإحدى الصحف السيّارة أو على موقعها الإلكتروني. لا تحفّز المواقف الاتصالية جميعها الدرجة نفسها من اليقظة الإبستيمية؛ فلا مقارنة مثلا بين التنبه الإدراكي لقاضٍ يستمع لأقوال متهم، ونظيره لدى مواطن يتصفّح المواقع الإخبارية بنصف تركيز وهو يحتسي فنجان قهوته الصباحية. أريد أن أقول إن قارئ مقالات الأسواني– مع التسليم بجدية انشغاله بالشأن السياسي العام وأخذه لأمره بعناية– يمارس في نهاية المطاف نشاطا يوميا اعتياديا هو قراءة الصحف، أو التنقل بين مواقع الإنترنت، مشغّلا يقظته الإبستيمية في حدها الأدنى أو المتوسط في أحسن الأحوال.

ويبدو أن الأسواني يراهن على استنزاف هذا القدر البسيط من اليقظة الإبستيمية في أمور تتعلق بالاستدلال ليُترك أمر التقييم غفلا من الأثر النقدي لليقظة الإبستيمية. لقد مرَّ بنا أن الأسواني يتناصّ مع خطاب النظام حول المباراة كما تبدت صيغته المضخَّمة المتعصبة بدون استخدام أية وسائل تعبيرية قد توحي بالمباعدة بينه وبين تلك الخطابات ، تاركا القارئ يستدلّ على انتفاء أي دلالة إيجابية من ذلك التناص من خلال مقارنة مضمون هذا المقال بمواقف سابقة للكاتب، كما ترك لقارئه كذلك عبء البحث عن المقصد الاتصالي من استخدام هذا الأسلوب المراوح كما تقدّم، والوقوف على فهم

العلة الكامنة وراء استعمال نبرتين مختلفتين تماما في الخطاب: نبرة متعاطفة، وأخرى متهكمة. يراهن الأسواني على أن تلك الغابة من الألعاب الأسلوبية ستستنزف الجزء الأكبر من اليقظة الإبستيمية- المحدودة أصلا بحكم طبيعة الموقف الاتصالي- فيما يوصله بالكاد إلى الاستدلال على مقصد المتكلم، بدون أن يصل به إلى اتخاذ موقف نقدي من الحجاج المقدم، متجنبا اتهام القارئ له بارتكاب مغالطات أو ممارسة التلاعب.

4. خاتمة

خلص البحث إلى النتائج الآتية:

1 – اتساع نطاق المقاربات التداولية للحجاج، وتنوع النتائج التحليلية التي يمكن الخلوص إليها عند معاينة الخطاب الحجاجي، في ضوء طبيعة الحقل المعرفي الذي تدخل التداولية معه في تكامل منهجي: الجدل وعلوم الإدراك في حالتنا هذه.

2 – توظف المقاربة الجدلية التداولية للحجاج أدوات تداولية مستمدة من رؤى سيرل الوصفية (ومن قبله أوستن Austin بطبيعة الحال) ورؤى جرايس المعيارية، وهي رؤى تهمل المبادئ الإدراكية الأساسية التي تحدث عمليات الاستدلال والتفسير على هدي منها، على الرغم مما تتحلى به هذه الرؤى من دقة تعين على فهم الجوانب الوظيفية للغة كما تظهر في الاستعمال الفعلي. هذا المنظور الإدراكي هو ما تحاول المقاربة التداولية الإدراكية مراعاته عند مقاربة الخطاب الحجاجي.

3 – تعيننا المقاربة الجدلية التداولية للمقال موضوع الدرس على الإجابة عن سؤال "ماذا حدث؟"، من خلال إيضاح احتمالية مخالفة الكاتب لمعايير العقلانية كما يتصورها "المنظرون"، في حين أن المقاربة التداولية الإدراكية تساعدنا في الإجابة عن سؤال "كيف حدث؟"، من خلال شرح الطرائق الممكنة التي صارت من خلالها مخالفةُ تلك المعايير، وارتكاب مغالطة من ثم، أمرا قد يحظى بقبول القارئ "العادي".

4 – وإذا كانت المقاربة الجدلية التداولية تساعدنا في اكتشاف السلوك اللغوي التلاعبي غير التعاوني، وهو ظاهرة يرى الجدلي أنه لا "ينبغي" لها أن تحدث رغم تسليمه بشيوعها، فإن المقاربة التداولية الإدراكية تساعدنا في فهم المفارقة الكامنة في شيوع ظاهرة يجمع المنظرون على خطئها، مُرجِعا ذلك إلى طبيعة النظام الإدراكي للبشر نفسه، وخضوعه الحتمي للزلل.

ملحق

حكاية نورا والمنتخب الوطني

علاء الأسواني

17 نوفمبر 2009

أردت أن أكتب هذا الأسبوع عن سيدة مصرية اسمها نورا هاشم محمد، لكن النصر العظيم الذى حققه منتخبنا الوطنى على منتخب الجزائر فى كرة القدم، لا يمكن تجاهله.. من هنا قررت أن أكتب عن الموضوعين معا: لا يوجد ما يميز نورا هاشم محمد لأنها مثل ملايين المصريات: سمراء ومتوسطة الجمال وفقيرة.. وقد تزوجت من عامل بسيط اسمه هانى زكريا مصطفى وأنجبت منه ولدين وخاضت معه كفاحا يوميا ضاريا من أجل لقمة العيش وتربية الولدين.. وذات يوم أحست نورا فجأة بإعياء شديد.

كانت مباراة منتخبنا الوطنى مع منتخب الجزائر، معركة مصيرية ظهر خلالها معدن المصريين الأصيل فتناسوا خلافتهم ووقفوا جميعا صفا واحدا خلف منتخبهم الوطنى. ولما كان الإعلام الجزائرى قد تورط فى السخرية من منتخبنا القومى بطريقة بذيئة فقد قام الإعلاميون المصريون بالرد على ذلك بوابل من الإهانات الموجعة للجزائريين. وعندما صرحت المطربة الجزائرية وردة بأنها ستشجع فريق الجزائر أحس مصريون كثيرون بالغضب وتساءلوا: كيف تجرؤ وردة على تشجيع الفريق الجزائرى وهى التى تعيش فى مصر وتنهل من خيرها منذ عقود..؟ وطالب بعض المدونين على الإنترنت بمنع دخول وردة إلى مصر عقابا لها على تقاعسها عن تشجيع منتخبنا الوطنى. فى البداية أرجعت السيدة نورا إحساسها بالإعياء إلى قلة النوم وكثرة عملها فى البيت، وقد أخفت الأمر عن زوجها هانى حتى لا تزيد من متاعبه. لكن تعبها زاد حتى رقدت فى الفراش.. عندئذٍ أصر هانى على اصطحابها إلى عيادة خاصة ودفع الكشف للطبيب الذى فحصها ونصح بنقلها فورا إلى المستشفى.

حرص سيادة الرئيس مبارك على حضور تدريب المنتخب الوطنى وقضى وقتا مع اللاعبين ليشد أزرهم قبل المباراة..

والحق أن رعاية الرئيس مبارك للرياضيين معروفة، ولعلنا نذكر عندما مات ألف وأربعمائة مصرى غرقا فى حادثة العبارة الشهيرة.. فإن حزن الرئيس مبارك آنذاك على الضحايا لم يمنعه من حضور تدريب المنتخب الذى كان يستعد لمعركة مصيرية أخرى فى نهائى كأس أفريقيا..

عندما وصل هانى زكريا وزوجته نورا إلى مستشفى صدر إمبابة، كانت الساعة الثانية صباحا.. كشف الطبيب على نورا بسرعة وقال إن حالتها عادية ولا تحتاج إلى مستشفى ثم انصرف، حاول هانى أن يلحق به ليتناقش معه لكنه لم يسمح له بمقابلته..

رجع هانى إلى موظف الاستقبال ورجاه أن يساعده حتى يتمكن من علاج زوجته.. عندئذٍ قال له موظف الاستقبال بوضوح:

إذا أردت أن تعالج زوجتك. ادفع الآن مبلغ 2000 جنيه ..

أثناء مباراتنا مع الجزائر، وبالرغم من الخشونة المتعمدة من الجزائريين فقد مارس لاعبونا أقصى درجات ضبط النفس. كما ظهر تدين المصريين العميق واضحا أثناء المباراة وقبلها.. فارتفعت دعوات ملايين المصريين إلى الله لكى يسجل الفريق المصرى هدفين على الأقل ..

وظهر المطرب ايهاب توفيق فى التليفزيون وطلب من المشاهدين جميعا الدعاء للمنتخب، مؤكدا أن فى مصر رجالا صالحين كثيرين وهؤلاء قطعا دعاؤهم مستجاب ..

أصيب هانى بالذهول عندما استمع إلى المبلغ المطلوب منه، وسأل موظف الاستقبال بصوت خافت إن كان مستشفى صدر إمبابة مازال يتبع الحكومة المصرية؟

أخبره الموظف، بفتور، أنه مازال يتبع الحكومة لكنه يجب أن يدفع ألفى جنيه.. قال هانى إنه فقير ولا يملك هذا المبلغ.. لم يرد الموظف عليه وانصرف إلى قراءة أوراق أمامه.. بدأ هانى فى التوسل للموظف حتى يسمح بعلاج زوجته.

صباح يوم المباراة، صرح الناقد الرياضى المعروف ياسر أيوب فى التليفزيون، بأنه فى حالة فوز المنتخب على الجزائر والتأهل للمونديال ..

فإن كل لاعب فى المنتخب سوف يحصل على مكافأة مالية قدرها 6 ملايين جنيه مصرى من الدولة واتحاد الكرة.. ولما بدا على وجه المذيعة بعض الاستغراب من ضخامة المبلغ.. قال ناقد رياضى آخر :

اللاعبون فى المنتخب يستحقون أكثر من ذلك، لأنهم يبذلون مجهودا خرافيا من أجل إدخال الفرحة على قلوب المصريين.

لما يئس هانى من إقناع موظف الاستقبال فى مستشفى صدر إمبابة، أخذ زوجته التى بدأت تترنح من الإعياء والحمى وذهب بها إلى مستشفى صدر العمرانية، حيث كشف عليها الطبيب هناك وقال إنه يشتبه فى أنها مريضة بإنفلونزا الخنازير، وأخبره بأنه لا يستطيع علاجها فى المستشفى لأنها غير مجهزة لمثل حالتها .ونصحه باصطحاب زوجته إلى مستشفى أم المصريين حيث توجد التجهيزات الطبية اللازمة ..

لا يقتصر حب الرياضة على الرئيس مبارك لكنه يمتد أيضا إلى ولديه جمال وعلاء، وقد حرص الاثنان على الذهاب إلى الاستاد لتشجيع المنتخب وذهب معهما معظم الوزراء وكبار المسئولين بمن فيهم وزير الصحة الذى جلس بجوار السيد جمال مبارك مباشرة.. وقد رأينا فرحة كل هؤلاء الغامرة عندما أحرز عمرو زكى الهدف الأول فى مرمى الجزائر.

شكر هانى الطبيب وأخذ زوجته نورا وهرع إلى مستشفى أم المصريين، حيث توسل إلى المسئولين هناك حتى ينقذوا زوجته التى بدأت تبصق دما، لكن الطبيب فى أم المصريين طمأنه تماما وقال إن حالة زوجته عادية ولا تحتاج إلى الحجز فى المستشفى .ونصحه بالعودة بها إلى مستشفى صدر العمرانية لأنها الجهة المتخصصة فى حالتها..

بعد الهدف الأول، وبالرغم من الجهد الكبير والروح القتالية، لم يستطع لاعبونا أن يسجلوا فى مرمى الجزائر لمدة 90

دقيقة كاملة.. وقد بان الغضب على وجوه كبار المسئولين الجالسين فى المقصورة.. حتى إن السيد علاء مبارك لم يتمالك نفسه وأشاح بيده اعتراضا على إضاعة منتخبنا عدة فرص لأهداف مؤكدة.

عاد هانى من جديد، وهو يكاد يحمل زوجته نورا، إلى مستشفى صدر العمرانية، ولأول مرة يرتفع صوته غاضبا فى وجه الطبيب:

– لماذا أرسلتنى إلى مستشفى أم المصريين إذا كان علاج زوجتى هنا؟

أكد له الطبيب أن تشخيصه صحيح وأنهم فى مستشفى أم المصريين يتهربون من علاج المرضى.. وطلب منه شهادة رسمية من مستشفى أم المصريين بأن حالة نورا عادية وليست خطيرة.. عندئذٍ اعتذر هانى للطبيب عن حدته فى الكلام وأخذ زوجته من جديد إلى أم المصريين وطالبهم بإعطائه شهادة بحالة زوجته الصحية ..

والحق أنهم هذه المرة عاملوه بلطف، وأكدوا له انهم سيعملون التحاليل اللازمة لزوجته نورا لكن عليه أن يعود بها فى الثامنة صباحا، لأن مسئولة التحاليل غير موجودة (تبين بعد ذلك أنها كانت موجودة لكنها أرهقت من العمل فطلبت من زملائها صرف المريضة نورا بأى طريقة).

كادت المباراة تنتهى وفى الوقت بدل الضائع، تمكن عماد متعب من إحراز الهدف الثانى فى مرمى الجزائر، ورقصت مصر كلها طربا.. بل إن الدكتور حاتم الجبلى وزير الصحة، نسى وقار منصبه والكاميرات المسلطة عليه، وقفز من مكانه واحتضن جمال مبارك ليهنئه بالنصر العظيم.

عاد هانى بزوجته نورا إلى مستشفى صدر العمرانية ليودعها حتى الصباح ثم يأخذها بعد ذلك لعمل التحاليل فى أم المصريين، وكانت حالة نورا قد ساءت لدرجة أنهم وضعوها على جهاز التنفس الصناعى ولم تلبث أن لفظت أنفاسها الأخيرة قبل أن تتمكن من إجراء التحاليل اللازمة لتشخيص حالتها.. ماتت نورا هاشم محمد وهى لم تتجاوز الخامسة والعشرين، وتركت زوجها هانى وولدين صغيرين ..

ولعلنا البلد الوحيد الذى يموت فيه الناس بهذه الطريقة.. على أن مأساة نورا هاشم محمد لا يجوز أن تعكر صفو فرحتنا بالنصر على الجزائر.. لقد استجاب الله لدعائنا وجعلنا نحرز هدفين نظيفين..وهكذا أذقنا الجزائريين من كأس الهزيمة وسوف نسحقهم بإذن الله فى مباراتنا المقبلة ...

مبروك لمصر الوصول إلى المونديال ورحم الله السيدة نورا هاشم محمد ...

الديمقراطية هى الحل

Abstract

Two pragmatic analyses of one argumentative discourse

By Ahmed Abdel Hamid Omar

This research aims to distinguish the pragma-dialectical approach from the cognitive pragmatic one to argumentative practices, by means of comparing how each is applied to a randomly selected text, which is a political column written by the novelist Alaa Al-Aswany, and published in the Egyptian newspaper, Al Shorouq, in 2009.

The pragma-dialectical approach is primarily concerned with reconstructing the argumentative discourse, with the help of Searlean conditions of speech acts and Gricean maxims. This reconstruction boils down to specifying the relevant elements that are instrumental in resolving difference of opinion between parties involved in a critical discussion. Specifying such elements helps a "theorist" evaluate the argumentative discourse at issue by viewing to what extent it is committed to norms of reasonableness.

By contrast, the cognitive pragmatic approach is concerned with identifying how the cognitive system of an "ordinary" arguer functions when receiving a discourse, and how this system works at the levels of inference and assessment. This approach shows a specific interest in illustrating how arguers would constraint the context aiming at producing an interpretation of the discourse at issue, that is in accordance with their persuasive goals.

Arguers usually make use of some "cognitive shortcuts" to achieve such an aim. Hence, this research suggests a new shortcut that can be called the "victim-perpetrator" shortcut which directs an interlocuter to process information in view of a limited number of assumptions, ignoring other relevant ones.

الهوامش

[1] نص المقال كاملا مُثبت بملحق في نهاية البحث.

[2] أستخدم صيغة التعريف للإشارة إلى المقاربة الجدلية التداولية نظرا لتحولها إلى نظرية متكاملة الأركان، سواء في صيغتها القياسية أو الموسَّعة؛ إذ بدأ الجدليون التداوليون العمل على تطوير مقاربتهم للخطاب الحجاجي ابتداء من أوائل العقد التاسع من القرن المنصرم في رحاب جامعة أمستردام، ولمدة أربعة عقود كاملة، في حين أستخدم صيغة التنكير لوصف المقاربة التداولية الإدراكية؛ لأنها حديثة العمر نسبيا، وتتضمن رؤى متنوعة لم تندمج بعدُ في إطار نظرية متكاملة، وإن كان معظم من أدلوا بدلوهم في نطاقها إلى الآن باحثون سويسريون. للمزيد حول دراسة الخطاب الحجاجي من منظور الجدل التداولي، يُنظر: (عمر، 2019).

[3] لا يتشكل التصميم الحجاجي لأي خطاب من جوانب موضعية topical تتعلق بمحتوى الحجج التي ينتقيها من بين قائمة الاختيارات المتاحة فحسب، بل يتشكل كذلك من التقنيات الأسلوبية والأشكال البلاغية الموظَّفة، أو ما يعرف إجمالا لدى الجدليين التداوليين بالوسائل التقديمية، تلك التي تزيد من احتمالية قبول الحجج المطروحة. الإشارة الأوضح لفكرة الوسائل التقديمية جاءت مع توسعة النظرية الجدلية التداولية بإضافة بعد بلاغي لها من خلال طرح مفهوم "المناورة الاستراتيجية"، الذي يفترض أن المحاججين يسعون لتحقيق اتزان رهيف بين بلوغ الهدف الجدلي من النقاش الحجاجي ممثلا في مراعاة معايير المعقولية من ناحية، والهدف البلاغي المتمثل في إقناع مخاطبيهم. يتحقق هذا الاتزان

عبر اختيارات منتقاة بعناية على ثلاثة مستويات: مستوى الخيارات الموضعية أو المقولية topical choices، والوسائل التقديمية، وملاءمة الجمهور المستهدف. للمزيد حول مفهوم المناورة الإستراتيجية تنظيرا وتطبيقا، يُنظر: (عمر، 2019).

[4] واحدة من الحالات الاستثنائية جدا في هذا الصدد بعض مقالات الإعلامي وكاتب الرأي مفيد فوزي، التي تأتي على صورة نقاط شديدة الاختصار، يعالج كل منها بإيجاز شديد موضوعا، على سبيل التلميح غالبا، وينتقل إلى الذي يليه في جملة تالية، وهو استثناء لا يُقاس عليه بطبيعة الحال. يُنظر، على سبيل المثال، مقاله بعنوان "ما قلَّ قليلا، ودلَّ كثيرا" المنشور في صحيفة "المصري اليوم" بتاريخ 22 فبراير 2013، وهذا مقتطف منه للإيضاح:

- الخوف والبطالة والكراهية والإقصاء والأخونة والتخوين والانتقام والسحل: مفردات زماننا الردىء.
- أنا لا أصدق أن الجهاديين ألغوا السلام الوطنى لمصر واخترعوا سلاماً وطنياً آخر.
- كنت أظن أن إقالة مستشار الرئيس للبيئة بسبب القمامة والسحابة السوداء وغبار المصانع وتلويث النيل.

المقال على على الرابط الآتي:

https://www.almasryalyoum.com/news/details/194385

[5] في هذا الصدد ينقل محمد مشبال عن رث أموسي Ruth Amossy تمييز منجنو Maingueneay "بين الإيتوس المقول ethos dit الذي يشير فيه المتكلم إلى ذاته وبين الإيتوس الموحي ethos montre الذي لا يشير فيه إلى ذاته، ولكنه يحتوي على كل العناصر التي تجعل السامع أو القارئ يكشف عن هذه الذات" (مشبال، 2017، ص180).

[6] يعرف هدسون Hudson النوعية من اللغة variation of language بوصفها "مجموعة وحدات لغوية لها التوزيع الاجتماعي نفسه"، وهو ما يجعل كلا من العربية المعاصرة، وعربية التعليق والتحليل الكرويين، والعامية القاهرية التي يستخدمها الموظفون الحكوميون، وهلم جرا، نوعية من اللغة لأن كلا منها يحوي وحدات لغوية (مفردات، وعبارات مصكوكة، وتراكيب، واستعارات، وطرائق للنبر والتنغيم، إلخ) مغايرة بدرجة أو بأخرى لتلك المتضمنة في نوعية أخرى من اللغة. للمزيد، انظر: هدسون Hudson (1990، 39–44).

[7] انشغل جرايس بالمفارقة بين ما يقوله الناس وما يقصدونه؛ فقد يقولون بالضبط ما يقصدونه، لكنهم في أحيان كثيرة يقصدون أكثر مما يقولون، وربما قالوا عكس ما يقصدونه. صاغ جرايس مفهوم الاستلزام الحواري conversational implicature للدلالة على كل ما يُفهم ضمنيا من قول ما، بشرط قابليته للإلغاء، وعدم قابليته للانفصال عن المحتوى الدلالي بغض النظر عن اختلاف الصيغة اللغوية، وتنوعه بتنوع سياقات القول، وإمكانية تقديره. للمزيد حول الاستلزام الحواري كما فصل له جرايس، يُنظر: (نحلة، 2011، ص ص33–42).

[8] كان دانلر Danler (2017) قد درس الوسائل الخطابية التي يمكن للخطباء السياسيون أن يوظفوها لتوليد العواطف في نفوس مستمعيهم سعيا منهم لإقناع هؤلاء، وقد أولى الوسائل المعجمية اهتمامًا مفصلا، من خلال شرح الفاعلية العاطفية الممكنة للوظائف المتفرعة من ذاك المستوى: الوظيفة التركيبية (الإسناد والوصف مثلا)، والوظيفة الإدراكية (الاستعارات مثلا)، والوظيفة السيمانطيقية للمفردات (تعدد المعاني والغموض مثلا)، والوظيفة التداولية (استخدام مفردات وعبارات لها رصيد استعمالي يثير المشاعر). للمزيد، يُنظر: (دانلر، 2017، ص ص96–101). ويمزج الأسواني في المقاطع المقتبسة بين استخدام الوظيفتين الأولى والرابعة.

[9] ثمة إشكالية هنا تتعلق بافتراض أنه يظل أمرا محتملا أن قارئا ما سيعثر في طريقه بمقال الاسواني، وستكون تلك السابقة الأولى في حياته. سيغدو عصيّا على هذا القارئ أن يستنتج وجهة النظر الأساسية في المقال كما أبان عنها التحليل. غير أن ذلك يقتضي تحقق افتراض آخر مصاحب للأول، وهو الجهل التام لذاك القارئ بالأسواني، وبطبيعة حضوره في الفضاء العام بوصفه ناشطا سياسا مناهضا لنظام مبارك على نحو جذري، كما تُظهر مواقفه السياسية، وانضمامه لحركة (كفاية) أولا، ثم (الجمعية الوطنية للتغيير) لاحقا. لكن اجتماع الافتراضين معا مستبعد إلى حد كبير، وهو ما يجعلني أطمئن إلى التوصيف الوارد أعلاه للبنية الحجاجية للمقال.

[10] اقترح الجدليون التداوليون نموجا مثاليا للنقاش النقدي، يتألف من أربع مراحل لعملية حل الخلاف في الرأي، ينبغي على المشاركين في تبادل حجاجي المرور بها للوصول إلى حل للخلاف في الرأي: مرحلة المواجهة، وفيها يصبح أمرا واضحا وجود خلاف حول مقبولية وجهة النظر، فالمرحلة الافتتاحية، وفيها تتحدّد الأدوار النقاشية، ويُتفّق– صراحة أو ضمنا– بشأن المنطلقات المضمونية وقواعد النقاش، فالمرحلة الحجاجية، حيث يتبادل الطرفان الحجج والانتقادات أو الشكوك، وأخيرا المرحلة الاستنتاجية، وفيها يتوافق الطرفان على نتيجة للنقاش، أيا ما تكن. ولا يحتاج طرفا النقاش، المناصر والمناوئ، إلى المرور صراحة بالمراحل الأربع، ولا بالترتيب المذكور، ولا بكامل التفاصيل. وهذا هو مغزى تسمية النموذج بالمثالي؛ فهو لا يصف الممارسات الفعلية، لكنه يقدم أداة يسترشد بها المحلل، تتعلق بما ينبغي أن يكون عليه الوضع في الممارسات كما يتصوّرها المنظر (يُنظر: فان إمرن وخروتندورست، 1984، ص ص85–86؛ 2004، ص ص60–62).

[11] يقسم فان إمرن أنماط النشاط الاتصالي من حيث حجاجيتها إلى أربعة أقسام: "قد تكون أنماط النشاط الاتصالي حجاجية على نحو متأصل أو "جوهري" كما في حالة المناظرات البرلمانية، أو حجاجية على نحو مهيمن كما في حالة المقابلات السياسية، أو تكون حجاجية على نحو

صُدفوي كما في حالة الصلوات التي تُدعم فيها الدعوى بإقامة حجج، أو تكون غير حجاجية على الإطلاق، كما هي الحال إجمالا في نشرات الأخبار الموجزة التي ينقلها البث الإذاعي" (فان إمرن، 2010، ص ص266–267).

[12] تقسم سنوك هينكيمانس Snoeck Henkemans (1997) الحجاج المتعاضد إلى نوعين: الحجاج التراكمي، والحجاج التكاملي. تتراكم الحجج في النوع الأول، وكل منها يضيف إلى مقبولية وجهة النظر دعما مضافا، وتتفاوت الحجج من حيث القوة أو الضعف، ويمكن– نظريا على الأقل– حذف واحدة واستبدال أخرى جديدة بها في بنية مفتوحة. وخير مثال على ذلك الأدلة التي تقدَّم دعما لوجود الله سبحانه وتعالى. وفي حالة الحجاج التراكمي، وإذا كان عدد الحجج المقدمة كبيرا نسبيا، فإن تفنيد حجة منها لا يؤدي إلى إضعاف كبير في مقبولية وجهة النظر المطروحة؛ إذ يظل الرهان قائما على مقبولية سواها من حجج. وفي النوع الثاني من الحجاج المتعاضد، التكاملي، يكون ثمة ارتباط متبادل بين حجتين (أو أكثر) مقدمتين دعما لوجهة النظر. من الأمثلة الشهيرة على ذلك الحالاتُ التي تتضمن موازنة بين الجوانب الإيجابية والسلبية لاقتراح ما، كما في المثال: "أفضل ألا ألتقي بأصدقائي اليوم؛ فبالرغم من حاجتي للائتناس بهم، أفضل أن أنتهي من ترجمة الكتاب في موعده". في المثال السابق لا يمكن الاكتفاء بحجة "أفضل أن أنتهي من ترجمة الكتاب"؛ ففي ذلك تبسيط مخل للواقع الحجاجي نفسه، بل لا بد من إضافة حجة "مكمّلة"، يمكن صياغتها على النحو التالي: "وترجمة الكتاب أولى بالنسبة لي من تحصيل بعض الترفيه رغم حاجتي له". وفي هذا النوع من الحجاج المتعاضد، يؤدي تفنيد إحدى الحجتين إلى إضعاف ملموس لوجهة النظر المطروحة؛ نظرا للارتباط المتبادل بين الحجتين، وهو ما ينطبق على الحجاج الذي يستدلّ به الأسواني على الترتيب المقلوب للأولويات في ممارسات النظام القائم آنذاك (يُنظر: سنوك هينكيمانس، 1997، ص ص96–97).

[13] اقترح فان إمرن وخروتندورست أربع عشرة قاعدة للنقاش النقدي، ينبغي على المنخرطين في النقاشات الحجاجية الالتزام بها من أجل الحفاظ على معقولية النقلات الحجاجية. وانتهيا إلى وضع عشر وصايا للمناقشين المعقولين، تلخص ما تنطوي عليه تلك القواعد الأربع عشرة المفصلة. للمزيد حول هذه الوصايا تفصيلا، يُنظر: (فان إمرن وخروتندورست، 1992: ص ص93–217؛ 2004: ص ص187–196).

[14] في حين يعرف فان إمرن وخروتندورست (2004، ص 1) الحجاج بوصفه "نشاطا لفظيا، واجتماعيا، وعقليا، يستهدف إقناع ناقد عقلاني بمقبولية وجهة نظر، من خلال تقديم مجموعة من القضايا المبررة أو المفندة للقضية المعبَّر عنها في وجهة النظر"، فإن فان إمرن وآخرين (1996، ص 5) يقدمون في مرحلة أسبق تعريفا مختلفا الحجاج؛ فهو "نشاط لفظي واجتماعي للعقل يستهدف *زيادة* مقبولية وجهة نظر محتلف بشأنها (أو *نقصانها*) للسامع أو القارئ، من خلال تقديم جملة من القضايا المقصود بها تبرير (أو تفنيد) وجهة النظر أمام ناقد عقلاني". والتعريف الثاني هو الأدق– رغم قدمه– بالنظر في واقع الممارسات الحجاجية؛ إذ يشير إلى حقيقة أن الخطابات الحجاجية لا تهدف بالضرورة إلى نقل السامع أو القارئ من مطلق الشك في مقبولية قضية ما إلى حال اليقين التام بها.

[15] يُعرّف سبيربر وويلسون (1982) الوسط الإدراكي بوصفه جملة من الحقائق الماثلة أو المتعيّنة لنا، ولا تكون حقيقة ما ماثلة لشخص ما إلا إذا كان ذلك الشخص قادرا على تمثلها ذهنيا وقبول تمثلاتها بوصفها صحيحة أو محتملة الصحة. ويختلف الوسط الإدراكي لامرئ عن نظيره لدى سواه تبعا لاختلاف ما لدى كل منهما من ذكريات، وافتراضات مسبقة، وتوقعات، ونظم للقيم، تمكنه من استنباط افتراضات متباينة من الواقع الفيزيقي المعيش (سبيربر وويلسون، 1982، ص86). ولمناقشة مفصّلة للمصطلح في علاقته بالحجاج، يُنظر: تيندال Tindale (1992، ص ص179–182).

[16] وفقا لسبيربر وويلسون، يُعرف المحيط الإدراكي بوصفه جملة من الحقائق الماثلة أو المتعينة manifest لنا، ولا تكون حقيقة ما ماثلة أو متعينة لشخص ما في وقت معين إلا إذا كان ذلك الشخص قادرا على تمثلها ذهنيا وقبول تمثلاتها بوصفها صحيحة أو محتملة الصحة (1986، ص 39).

[17] أعداد صحيفة "الشروق" التي أرجع إليها موجودة جميعها على موقع الصحيفة، ويمكن الوصول إليها من خلال الرابط: https://www.shorouknews.com//pdf/

[18] واحد من الأمثلة الدالة هو لجاك شيراك، الرئيس الفرنسي الأسبق، الذي "تخلى عن وقار الرؤساء، محتفلًا بجنون في مدرجات إستاد دو فرانس بضاحية سان دوني، مع كل هدف من أهداف منتخب فرنسا الثلاثة التي سجلها في مرمى البرازيل في نهائي كأس العالم 1998". للمزيد، يُنظر تحقيق صحيفة الأهرام المصرية بتاريخ 26 سبتمبر 2019 على الرابط الآتي: https://gate.ahram.org.eg/News/2286447.aspx [تاريخ الدخول: 14 أبريل 2022. الساعة 13:40]

قائمة المراجع:

أولا: المراجع العربية:

عمر، أحمد عبد الحميد. (2019). تحليل المناورة الاستراتيجية في الخطاب الحجاجي، مجلة "الخطاب"، الجزائر، مج14، ع2: ص ص179–212.

عمر، أحمد عبد الحميد. (2020). دراسة الخطاب الحجاجي من منظور الجدل التداولي، مجلة "عالم الفكر، الكويت، ع182: ص ص39–78.

فضل، صلاح. (1987). نص شعري وثلاثة مناهج نقدية، مجلة "فصول"، القاهرة، مج7، ع1–2: ص ص551–258.
مشبال، محمد. (2017). في بلاغة الحجاج: نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، ط1، الأردن: كنوز المعرفة، الأردن.
نحلة، محمود أحمد. (2011). آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ط1، القاهرة: مكتبة الآداب.

ثانيا: المراجع المترجمة:

هدسون، د. (1990). علم اللغة الاجتماعي، ت: محمود عياد، ط2، القاهرة: عالم الكتب.

ثالثا: المراجع الأجنبية:

Danler, P. (2017). The Linguistic-Discursive Creation of *Pathos* for the Sake of Persuasion: A(nother) Key Aspect of Rhetoric and Argumentation. In A. Runjić-Stoilova & G. Varošanec-Škarić (Eds.), *New Insights into Rhetoric and Argumentation* (pp. 87-109). Split: Faculty of Humanities and Social Sciences.

Grice, H.P. (1975). Logic and conversation. In P. Cole & J.L. Morgan (Eds.). *Syntax and Semantics* (Vol. 3) (pp. 41-58). New York: Academic Press.

Ihnen Jory, C. (2016). Pragmatic argumentation in the law-making process. In D. Mohamed & M. Lewinski (Eds.), *Argumentation and Reasoned Action: Proceedings of the 1st. European conference on argumentation, Lisbon, June 9-12, 2015.*

Levinson, S.C. (1992). Activity types and language. In P. Drew & J. Heritage (Eds.), *Talk at work: Interaction in institutional settings* (pp. 66-100). Cambridge: Cambridge University Press.

Maillat, D. (2013). Constraining context selection: On the pragmatic inevitability of manipulation. *Journal of Pragmatics*, 59, 190-199.

Maillat, D. & Oswald, S. (2009). Defining manipulative discourse: The pragmatics of cognitive illusions. *International Review of Pragmatics*, 1, 348-370.

Maillat, D. & Oswald, S. (2011) Constraining context: A pragmatic account of cognitive manipulation. In C. Hart (Ed.). *Critical discourse studies in context and cognition* (pp. 65-80). Amsterdam: John Benjamins.

Maravall J. M. (2007). Accountability and the survival of governments. In C. Boix & S. Stokes (Eds.), *The Oxford Handbook of Comparative Politics*, pp. 910–939. Oxford, UK: Oxford University Press.

Oswald, S. (2007). Argumentation and cognition: Can pragma-dialectics interplay with pragma-semantics?. *Critical Approaches to Discourse Analysis across Disciplines*, 1(1), 148-165.

Oswald, S., Maillat, D. & Saussure, L. de (2016). Deceptive and uncooperative verbal communication. In L. de Saussure & A. Rocci (Eds.). *Verbal communication* (pp. 509-534). Berlin: Mouton de Gruyter.

Snoeck Henkemans, A.F. (1997). *Analysing complex argumentation: The reconstruction of multiple and coordinatively compound argumentation in a critical discussion.* Amsterdam: Sic. Sat.

Sperber, D. & Wilson, D. (1982). Mutual knowledge and relevance in theories of comprehension. In N.V. Smith (Ed.). *Mutual Knowledge* (pp. 61-85). London: Academic Press.

Sperber, D. & Wilson, D. (1995). *Relevance: Communication and Cognition* (2nd ed.). MA, Cambridge: Blackwell Publishers.

Sperber, D., Clément, F., Heintz, C., Mascaro, O., Mercier, H., Origgi, G. & Wilson, D. (2010). Epistemic vigilance. *Mind and Language*, *25*(4), 359-393.

Tversky, A. & Kahneman, D. (1974). Judgment under Uncertainty: Heuristics and Biases. *Science*, 185(4157), 1124-1131.

van Eemeren, F.H. & Grootendorst, R. (1984). *Speech acts in argumentative discussions*. Berlin / Dordrecht: De Gruyter / Floris.

van Eemeren, F.H. & Grootendorst, R. (1992). Argumentation, communication, and fallacies: A pragma-dialectical perspective. Hillsdale, New Jersey: Lawrence Erlbaum.

van Eemeren, F.H. & Grootendorst, R. (2004). *A Systematic Theory of argumentation: The pragma-dialectical approach.* Cambridge: Cambridge University Press.

van Eemeren, F.H. (2010). *Strategic maneuvering in argumentative discourse: Extending the pragma-dialectical theory of argumentation*. Amsterdam: John Benjamins.

van Eemeren, F.H. (2011). In context: Giving contextualization its rightful place in the study of argumentation. *Argumentation* 25, pp. 141-161.

van Eemeren, F.H., Grootendorst, R., Snoeck Henkemans, A.F., Blair, J. A., Johnson, R.H., Krabbe, E.C.W., Plantin, C., Walton, D.N., Willard, C.A., Woods, J., & Zarefsky, D. (1996). *Fundamentals of argumentation theory: Handbook of historical and contemporary developments.* Mawhah, NJ: Lawrence Erlbaum.

van Eemeren, F.H., Houtlosser, P. & Snoeck Henkemans, A.F. (2007). *Argumentative indicators in discourse: A pragma-dialectical study*. Dordrecht: Springer.

[19] فكر– مثلا– في الأثر العاطفي لمشهد افتتاحي لفيلم سينمائي، يصورعائلة فقيرة مطحونة، يغلب على أفرادها الهزال، تجد بالكاد ما يكفيها من طعام، يتبعه مشهد لعائلة أخرى ثرية، تحفل مائدتها بوليمة فيها ما لذ وطاب!